عُنْوَانُ البَيَانِ

فِي عُلُومِ التِّبْيَانِ

تجويد القرآن ـ جمع القرآن ـ ترجمته

للشيخ

مُحَمَّد حَسَنَيْن مَخْلُوف العَدَوِيّ

تقديم الشيخ

محمد خلف الحسيني الشهير بالحداد

شيخ المقارئ المصرية عام ١٩٢٥ م .

مُراجعة وتحقيق

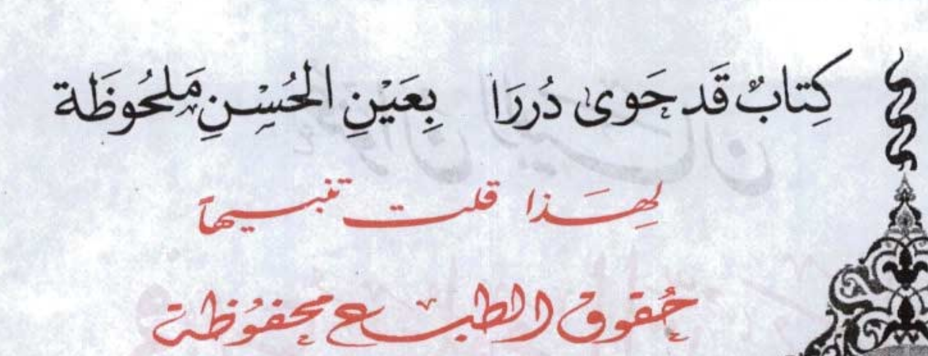
الشَّيخ خميس جابر صقر

موجه عام علوم القرآن بالأزهر الشريف

وعضو لجنة مراجعة المصاحف (سابقاً)

الناشر

الصَّحابة للدِّراسات القُرآنيّة والعربيّة



الصَّحَابَة للدّرَاسَاتِ القُرآنيَّةِ والعَرَبيَّة
للنشر والتحقيق والتوزيع

طنطا - شارع المديرية - أمام محطة بنزين التعاون
ص . ب : ٤٧٧
تليفاكس : ٠٤٠/٣٣٣١٥٨٧ ت : ٠٤٠/٣٣٣٨٤٠٩
ت : ٠٤٠/٣٣٣٠٨٤٠ محمول : ٠١٢٣٧٨٠٥٧٣



الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـ ٢٠٠٩م

رقم الإيداع : 2008/22476
الترقيم الدولي : 6-979-272-977

الموقع على شبكة الانترنت :
www.desahaba.net

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

الحمدلله الكبير المتعال .. خالق العباد ومنشئ هم على غير سابق مثال .. يفعل ما يشاء ويختار .. يدبر الأمر من السماء إلى الأرض فى الحال والمآل ..

والصلاة السلام على خير الأنبياء .. سيدنامحمد وعلى آله وصحبه الأطهار الأصفياء ..

وبعد

فهذا كتاب : (عنوان البيان فى علوم التبيان) يحمل من صنوف العلوم والمعرفة جميع الألوان .. ويتدلى من أغصان شجره ومن ثماره كل مستطابٍ ودانٍ.

وقد اتسم هذا الكتاب بعرض علومه ، وبيان أقسامها فى وضوح وبيان ، وناقش ونظَّر ، وأقام على كل فكرة برهان .. فتحدث عن القرآن الكريم مستعرضًا معناه عند أهل الأصول .. وعند المتكلمين وبيان معنى التنزيل والإنزال .. كما نوَّه بعلم التجويد ودلَّل على أهميته وعرض لقضاياه بصورة موجزة وبأسلوب جليل ومقنع عزَّ نظيره .

كما أفاض فى الحديث عن جمع القرآن فى جميع مراحله .. وكتابته بالرسم العثمانى .. وضروة الالتزام بهذا الرسم واستمداده وحقيقته .. ولماذا أجمع عليه الصحابة ؟ ولماذا كان ركناً هامًّا من أركان القراءة الصحيحة ؟ وبيان معنى التوقيف فيه ..

كما عرض لترجمة معانى القرآن وفنَّد جميع الآراء وأقام لكل رأى حجة .. ثم رجَّح ما رآه راجحاً .. وأرجأ الآراء الأقل رجحاناً .. بأسلوب علمى ومهنى متخصص فاق به الجميع من المعاصرين بل وأمعن النظر وأطال البحث والمناقشة والعرض فى كل قضاياه ..

وهذا الكتاب ذخيرة لكل متخصص فى علوم القرآن خاصة والتفسير عامة .. وقد امتاز بسهولة الأسلوب وحسن العرض وصدق المناقشة وقد بذلت فى مراجعته وتحقيقه جهدًا أسال الله تعالى قبوله .

هذا ونسأل الله للمؤلف حسن الخاتمة وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم والله المستعان .

المراجع والمحقق

الشيخ خميس جابر صقر


ترجمة المؤلف

قد اطلع حضرة الأستاذ الثبت الثقة الشيخ محمد الحسينى شيخ القراء بالديار المصرية على هذه الرسالة وكتب هذه الكلمة الآتية فشكرنا له.

تَقرِيظ

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدا لمن تكفل بحفظ الذكر الحكيم من عبث الإنسان والجان واختص من شاء من عباده فهداه إلى علوم التبيان وصلاة وسلاما على سيدنا محمد الذى أنزل عليه القرآن فبلغه مصونا من النقص والتحريف والتبديل وعلى آله وأصحابه الذين تلقوه عنه ونقلوا إلينا رسمه ونظمه محلى بحلية الترتيل .

وبعد

فقد وفقت لأن أقف على الكتاب الموسوم بعنوان : (البيان فى علوم التبيان) لناسج برده وناظم العقيدة الأستاذ الأوحد المعلم المفرد العلامة الفيلسوف ، ومن هو بكل جميل موصوف ، الشيخ محمد حسنين مخلوف ابن المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ محمد بن حسنين مخلوف ، فألقيته روضة تحقيق فى محاسنها يتنافس المتنافسون ، وبحر علم منه بغترف العلماء العاملون جمع فيه إلى جمال المبانى جمال المعانى ، وضمنه ثمرات المطولات وحلّى به جيد

المختصرات فكان **(عنوان البيان)** وآية العرفان وهدية الزمان إلى بنى الإنسان ولا غرو أن سرح الطرف فى هذه الرياض يبتغى ثمرها ، فدنت له قطوفها أو غاص هذا البحار يروم درها ، فتسابقت إليه صنوفها فهو دارس الميدان ورب الفصاحة والبيان ، نفع الله به وبما كتب فى كل زمان ومكان إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير .

كتبه

محمد خلف الحسينى

الشهير بالحداد شيخ المقارئ المصرية .

تقديم

الشيخ / محمد خلف الحسيني

الشهير بالحداد شيخ المقارئ المصرية عام ١٩٢٥ م.

رحمه الله تعالى

كان الشيخ محمد حسنين مخلوف

واحدًا من كبار علماء الأزهر، نزح إلى القاهرة من (بني عدي) بصعيد مصر والتحق بالأزهر، يحدوه الأمل في أن ينال ما ناله أبناء بلدته الذين تعلموا بالأزهر، وتخرجوا فيه حاملين لواء إرشاد الناس وتوجيههم مثل: الشيخ علي بن أحمد العدوي الذي جاور بالأزهر، وتفقه على مذهب المالكية، وجلس للتدريس بالأزهر، وكان قوي الشكيمة، يصدع بالحق، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويُذكر عنه أنه أول من ألّف الحواشي على شروح كتب الفقه المالكي. ونبغ أيضًا من أبناء هذه البلدة الكريمة: أبو البركات الدردير العالم الزاهد والفقيه النابه، وصاحب المؤلفات العظيمة في الفقه والتوحيد والتصوف، والعالم اللغوي محمد قطة العدوي الذي قام بجهد مشكور في إخراج أمهات كتب التراث التي كانت تطبعها مطبعة بولاق.

وفي الأزهر سمت به همته إلى طلب العلم ومصاحبة العلماء ، وثابر على القراءة والتحصيل ، حتى استوى عالمًا يشار إليه، ومصلحًا يُعهد إليه بجلائل الأعمال، فتولى إنشاء المكتبة الأزهرية وجمع لها الكتب

المبعثرة في المساجد، وصنفها وفهرسها، وكان أول مفتش للعلوم بالأزهر والمعاهد الدينية، وأصغر الأعضاء في المجلس الأعلى للأزهر الذي يشرف على أعمال الأزهر ويتولى توجيهه ووضع سياساته، واختير وكيلاً للجامع الأزهر.

المولد والنشأة

في هذا الجو الثقافي المعطر بأريج الدين ولد محمد حسنين مخلوف في حي باب الفتوح بالقاهرة في (١٦ من رمضان ١٣٠٧هـ = ٦ من مايو ١٨٩٠م)، وتعهده أبوه بالتربية والتعليم، فما أن بلغ السادسة حتى دفع به إلى من يحفّظه القرآن الكريم، وأتمه وهو في العاشرة على يد الشيخ محمد علي خلف الحسيني شيخ المقارئ المصرية، وهيأه أبوه للالتحاق بالأزهر فحفّظه متون التجويد والقراءات والنحو، ثم التحق بالأزهر وهو في الحادية عشرة من عمره وتلقى العلم على كبار شيوخ الأزهر، من أمثال الشيخ عبد الله دراز، ويوسف الدجوي، ومحمد بخيت المطيعي، وعلي إدريس، والبيجرمي، فضلاً عن والده الشيخ حسنين مخلوف العدوى.

ولما فتحت مدرسة القضاء الشرعي أبوابها لطلاب الأزهر، تقدم للالتحاق بها، وكانت تصطفي النابغين من المتقدمين بعد امتحان عسير لا يجتازه إلا ٱلْأَكْفَاءُ المتقنون.

وتخرج بعد أربع سنوات حائزًا على عالمية مدرسة القضاء سنة (١٣٣٢هـ = ١٩١٤م)، وبعد أن خاض امتحانًا قاسيًا أمام لجنة كان من بينها الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الأزهر، والشيخ بكري الصفدي مفتي الديار المصرية.

وكان الاختبار الشفوي النهائي يحضره شيخ الأزهر مع أربعة من كبار العلماء، وقد يمتد إلى ست ساعات للطالب الواحد، وقد تُرفع الجلسة بعد عناء لتستكمل عملها في الغد، ومن ثم كان لا يجتاز هذا الاختبار إلا الأذكياء من الطلبة القادرين على إقناع هذه اللجنة العظيمة بسعة تحصيلهم وغزارة علمهم في فنون مختلفة من العلم.

في القضاء

وبعد التخرج عمل الشيخ محمد حسنين مخلوف بالتدريس في الأزهر لمدة عامين، ثم التحق بسلك القضاء قاضيًا شرعيًا في قنا سنة (١٣٣٤هـ = ١٩١٦م)..

ثم تنقل بين عدة محاكم في (ديروط) و(القاهرة) و(طنطا)، حتى عُيِّن رئيسًا لمحكمة الإسكندرية الكلية الشرعية سنة (١٣٦٠هـ = ١٩٤١م) ثم رُقِّي رئيسًا للتفتيش الشرعي بوزارة العدل سنة (١٣٦٠هـ = ١٩٤٢م)..

وفي أثناء توليه هذه الوظيفة المرموقة أسهم في المشروعات الإصلاحية، مثل إصلاح قانون المحاكم الشرعية، وقانون المجالس الحسبية، ثم عُيِّن نائبًا لرئيس المحكمة العليا الشرعية سنة (١٣٦٣هـ = ١٩٤٤م)، حتى تولَّى منصب الإفتاء في (٣ من ربيع الأول ١٣٦٥هـ = ٥ من يناير ١٩٤٦م)

وظل في المنصب حتى (٢٠ من رجب ١٣٦٩هـ = ٧ من مايو ١٩٥٠م) عندما بلغ انتهاء مدة خدمته القانونية، فاشتغل بإلقاء الدروس في المسجد الحسيني إلى أن أُعيد مرة أخرى ليتولى منصب الإفتاء (١٣٧١هـ = ١٩٥٢م) واستمر فيه عامين.

وفي أثناء توليه منصب الإفتاء اختير لعضوية هيئة كبار العلماء سنة (١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م).

وبعد تركه منصب الإفتاء أصبح رئيسًا للجنة الفتوى بالأزهر الشريف لفترة طويلة، وكان عضوًا مؤسسًا لرابطة العالم الإسلامي بالمملكة العربية السعودية، وشارك في تأسيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، واختير في مجلس القضاء الأعلى بالسعودية.

فتاوى الشيخ

كان الشيخ محمد حسنين مخلوف مقصد الفتوى في مصر، والملجأ الصادق حين تدلهم بالناس المشكلات، فيجليها لهم في براعة وإخلاص، ملتزمًا بالشريعة الإسلامية لا يهاب أحدًا، ولا يخشى في الحق

لومة لائم، وكانت أولى فتاواه وهو لا يزال طالبًا في مدرسة القضاء الشرعي حين دفع إليه أبوه برسالة وصلت إليه، يطلب مرسلها حكم الإسلام في الرفق بالحيوان، وطلب منه أن يكتب الرد بعد الرجوع إلى المصادر الشرعية، فعكف الطالب النابه أسبوعين حتى أخرج رسالة مستوفاة، سُرّ بها الوالد، وبادر إلى طباعتها من فرط سعادته بابنه النابغ، وكان هذا التوفيق في الفتوى إرهاصًا لما سيكون عليه في مقبل الأيام من كونه مفتيًا فذًّا وعالمًا كبيرًا.

وخاض الشيخ حربًا شعواء في فتاواه ضد الإلحاد والشيوعية قبل ثورة ١٩٥٢م ، وكان بمصر بعض المخدوعين الذين يظنون خيرًا في الشيوعية ويعدونها جنة للفقراء ومفتاحًا للرخاء، فلما صدع بالحق وأعلن أن الشيوعية بعيدة كل البعد عن الإسلام، اتهمه هؤلاء بشتى التهم الباطلة. وبعد الثورة طُلب منه أن يعلن أن الإسلام اشتراكي، وأن الاشتراكية نابعة من صميم الإسلام، لكن الشيخ أبى، وأصر على أن الإسلام لا يعرف الاشتراكية بمعناها في الغرب، لكنه يعرف العدل والمساواة والتكافل بالمعنى الذي ورد في آيات الكتاب العزيز.

وجرّت عليه فتاواه الشرعية خصومة المعارضين له، وكانوا من ذوي الجاه والسلطان، فحاربوا الشيخ الجليل، وضيقوا عليه، وامتنعت الصحف عن نشر ما يكتبه صادعًا بالحق كاشفًا الزيف، ولم يكن له متنفس سوى مجلة الأزهر يجهر فيها بما يراه الحق الصحيح، حتى هاجر إلى السعودية، فوجد فيها ملاذًا آمنًا.

مؤلفاته

شغلت الشيخ أعماله في القضاء والدرس عن التأليف والتصنيف، واستهلكت فتاواه حياته، وهي ثروة فقهية ضخمة أحلته مكانة فقهية رفيعة، وقد جُمعت فتاواه التي أصدرها في أثناء توليه منصب الإفتاء، وما نشر في الصحف السيارة في مجلدين كبيرين.

غير أن للشيخ كتبًا وهي على وجازتها نافعة جدًا، لأنه وضعها حلاً لقضية أو بيانًا لمشكلة اجتماعية، فهي كتب عملية تأخذ بيد الناس وتبين لهم مبادئ دينهم في سماحة ويسر.

فحين رأى كثرة السائلين في أثناء دروسه عن بعض معاني الآيات القرآنية، وجد من اللازم أن يخص كتاب الله عز وجل بمؤلفين:

أحدهما : يختص ببيان معاني الكلمات القرآنية، وأطلق عليه (كلمات القرآن تفسير وبيان)وقد رزق الكتاب حظوة بالغة وتعددت طباعته، أما الآخر فهو أكثر اتساعًا وبيانًا لمعاني القرآن، وسمّاه : (صفوة البيان لمعاني القرآن).

ولما رأى احتفاء الناس بذكرى الأربعين لوفاة الميت، كتب رسالة أوضح فيها أن هذا العمل بدعة مذمومة، لا أصل لها في الدين، وقد نُشرت هذه الرسالة بعنوان: (حكم الشريعة في مأتم ليلة الأربعين) تضمن ما يجب عمله شرعًا من أجل الموتى.

وهكذا جاءت معظم مؤلفاته التي وضعها خدمة للدين، وتبصيرًا للناس به، وإحياء للسنة، ومحاربة للبدع التي انتشرت في أوساط المسلمين.

ويحسن أن تستعرض أسماء بعض هذه المؤلفات، فمنها:

• أسماء الله الحسنى والآيات القرآنية الواردة فيها.

• أضواء من القرآن الكريم في فضل الطاعات وثمراتها وخطر المعاصي وعقوباتها.

• آداب تلاوة القرآن وسماعه.

• المواريث في الشريعة الإسلامية.

• شرح البيقونية في مصطلح الحديث.

• وللشيخ جهود في تحقيق بعض الكتب، مثل:

• الحديقة الأنيقة في شرح العروة الوثقى في علم الشريعة والطريقة والحقيقة لمحمد بن عمر الحريري.

• شرح الشفا في شمائل صاحب الاصطفا للملا علي القاري.

• هداية الراغب بشرح عمدة الطالب لعثمان بن أحمد النجدي.

تكريم الشيخ

كان الشيخ محل تقدير واحترام لسعة علمه وشدته في الحق، وعلى الرغم مما ألمّ به في مصر من بعض التضييق، فإن الدولة قبل الثورة وبعدها نظرت إليه بعين التقدير لجلائل أعماله في الدعوة والقضاء والإفتاء، فمُنح كسوة التشريفة العلمية مرتين: الأولى وهو رئيس لمحكمة طنطا، والأخرى وهو في منصب الإفتاء، كما نال جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية سنة (١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م)، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى، وامتد تكريمه إلى خارج البلاد، فنال جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام سنة (١٤٣هـ = ١٩٨٣م).

وفاة الشيخ

طالت الحياة بالشيخ حتى تجاوز المائة عام، قضاها في خدمة دينه داخل مصر وخارجها، حيث امتدت رحلاته إلى كثير من البلاد العربية ليؤدي رسالة العلم، ويلقي دروسه، أو يفتي في مسائل دقيقة تُعرض عليه، أو يناقش بعض الأطروحات العلمية في الجامعات، وظل على هذا النحو حتى لقي ربه في (١٩ من رمضان ١٤١٠هـ = ١٥ من إبريل ١٩٩٠م) رحمه الله رحمة واسعة.

المُقَدِّمَة

التمهيدية لمؤلف الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾ (الرحمن: ١ – ٤) فله الحمد الوافى على مزيد نعمه، والشكر الكافى على وفير مننه.

والصلاة والسلام على أشرف خلقه، وصفوة رسله، سيدنا محمد بن عبدالله وعلى آله وأصحابه ومن والاه.

أما بعد

فهذه رسالة ممتعة وأبحاث قيمة تتعلق بالقرآن الكريم وضعتها فى شهر رجب سنة ١٣٤٠ هجرية ورتبتها على أربع مقالات وخاتمة :

فقد عنيت فى شهر رجب سنة ١٣٤٠ هجرية بوضع رسالة فى بعض مباحث تتعلق بالقرآن الكريم اشتملت على أربع مقالات :

(الأولى) : فى بيان ما يطلق عليه اسم القرآن وكلام الله القديم .

(الثانية) : فى حكم تجويد القرآن وأركان قراءته .

(الثالثة) : فى جمع القرآن وكتابته بالخط العثمانى .

(الرابعة) : فى حكم ترجمة القرآن وكتابته وقراءته بغير العربية .

وسميتها: (عنوان البيان فى علوم التبيان)

ولما حدثت فى هذه الآونة ضجة بين الكُتَّاب فى حكم القرآن باللغات الأجنبية اختلفت فيها الآراء وتشعبت الأهواء حررت المقالة الرابعة من هذه الرسالة وأفردتها بالطبع فى شهر شوال سنة ١٣٤٣ ونشرتها بين أهل العلم وغيرهم بالقطر المصرى وخارجه ، ثم حررت بقية المقالات فى شهر ذى القعدة سنة ١٣٤٣ وأفردتها بالطبع مستعيناً بالله تعالى راجياً منه النفع بها فى الآخرة والأولى وهو حسبى ونعم الوكيل .

مُحَمَّد حَسَنَيْن مَخْلُوف العَدَوى

١٥ من ذى القعدة سنة ١٣٤٣ هجرية ـ ٧ من يونيه سنة ١٩٢٥ .

الفَصْلُ الأوَّلُ

فيما يطلق عليه لفظ القرآن الكريم وكلام الله تعالى

فيما يطلق عليه لفظ القرآن الكريم وكلام الله تعالى

(١) معنى القرآن فى اللغة :

اعلم أن لفظ القرآن فى الأصل : وصف أو مصدر مشتق من القرْءِ بمعنى الجمع كما قال الزجاج واللحيانى سمى به كلام الله تعالى .

قال أبو إسحاق النحوى :

سمى كتاب الله تعالى الذى أنزله على نبيه ﷺ قرآناً لأنه يجمع السور وقال ابن الأثير: تكرر فى الحديث ذكر القراءة والإقتراء والقارئ والقرآن والأصل فى هذه اللفظة الجمع وكل شيء جمعته فقد قرأته ، وسمى القرآن قرآناً لأنه جمع القصص والأمر والنهى والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض ، وهو مصدر كالغفران والكفران ، والإقتراء : افتعال من القراءة وقد تحذف الهمزة منه تخفيفاً فيقال : قرآن . أ هـ .

وقال قوم منهم الأشعرى :

كما فى الإتقان [1] أن القرآن مشتق من : قرنت الشيء بالشيء إذا ضممت

---

(١) للحافظ جلال الدين السيوطى، ولد فى رجب ٨٤٩ هجرية له مؤلفات عديدة ونافعة ومنها الإتقان فى علوم القرآن .

بعضه إلى بعض وسمى به لقران السور والآيات والحروف فيه [١].

وقيل : القرآن مشتق من القرائن لأن الآيات فيه يصدّق بعضها بعضاً فهى قرائن وعلى هذين القولين هو بلا همز [٢] ونونه أصليه [٣] .

قال الزجاج :

هذا غلط والصواب أن ترك الهمزة فيه من باب التخفيف ، ونقل حركتها إلى ما قبلها فهو عنده وصف مهموز على ((فُعْلاَن)) مشتق من القرء بمعنى الجمع لأنه جمع السور كما قال أبو عبيدة أو ثمرات الكتب السابقة كما قال الراغب وعند اللیحانی وجماعة هو مصدر كالغفران سمى به المقروء تسمية المفعول بالمصدر كما فى اللسان وغيره [٤] .

---

(١) الإتقان (١ / ١٤٤) .

(٢) وكان ابن كثير لا يهمز (القرآن) ويقول : القرآن إنما هو اسم مثل : التوراة – وجوّز أن يكون من : قرنت الشيء بالشيء – قال أبوعلى : وهذا سهو فمن ظنه . أهـ .
راجع جمال القراء وكمال الإقراء ، للسخاوى ت ٦٤٣ هجرية ج ١ الخانجى .

(٣) هو قول الفراء [انظر الإتقان (١ / ١٤٤)] .

(٤) انظر السابق .

وذكر صاحب الإتقان [١] :

أن الله تعالى سمى القرآن بخمسه وخمسين اسماً سماه كتاباً مبيناً إلى آخر ما ذكره .

(٢) معنى القرآن فى اصطلاح أهل الأصول :

والأسم العلم منها هو القرآن فهو فى الأصل وصف أو مصدر جعل علما على الكلام المنزل على نبينا محمد ﷺ .

كما ذهب إليه الشافعى رضي الله عنه ومحققو الأصوليين :

وحدَّدوه تارة بلافظ المنزل للإعجاز بسورة منه وتارة بما نقل بين دفتى المصحف تواتراً وتارة باللفظ المنزل على محمد ﷺ للإعجاز [٢] بسورة منه والتعبد بتلاوته لتصوير مفهومه لا لبيان حقيقته لأن التعريف لا يكون إلا

---

(١) الإتقان (١ / ١٤٤) .

(٢) القرآن كلام الله المنزل على قلب محمد ﷺ بوساطة الوحى منجماً فى شكل آياتٍ وسورٍ خلال فترة الرسالة مبدوءاً بفاتحة الكتاب مختوماً بسورة الناس منقولاً بالتواتر المطلق برهاناً معجزاً على صدق رسالة الإسلام .

يراجع تاريخ القرآن ، د / عبدالصبور شاهين (٢٥) ط دار الاعتصام .

للحقائق الكلية وقيدوه بالمصحف[١] ؛ لأن الصحابة - رضوان الله عليهم -على ما سيأتي بالغوا فى أن لا يكتب فيه ما ليس منه مما يتعلق به حتى النقط والشكل واحتاطوا فى ذلك حتى جردوه من كل ما يخالف شكله كى لا يختلط به غيره ونقل إلينا متواتراً ، فعلم أن المكتوب فى المصاحف المتفق عليها من الصحابة هو القرآن ، وما هو خارج عنها ليس بقرآن ، إذ يستحيل فى العرف والعادة مع توفر الدواعى على حفظه وضبطه أن يهمل بعضه فلا ينقل أو يخلط به ما ليس منه ، وهو علم شخصى على ما يصدق عليه هذا المفهوم من أول سورة الحمد إلى آخر سورة الناس عند الأصوليين والفقهاء وأهل العربية الباحثين عن أقواله المحتجين بأبعاده وأجزائه .

وإنما حدَّدوه بما ذكر من أوصافه مع تشخصه لضبط أجزائه وتميزه عما لا يسمى باسمه من الكلام كالتوراة والإنجيل والأحاديث النبوية والقدسية وما نسخت تلاوته ، وعلميته .

---

(١) وفى خبرهام عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد عن النبى ﷺ قال : ((ولا تكتبوا عنى شيئًا سوى القرآن ومن كتب عنى شيئًا سوى القرآن فَلْيمْحُهُ)) .
انظر كتاب المصاحف لأبى بكر بن أبى داود السجستانى ، ص ٩ ، ط دار الكتب العلمية .

إما باعتبار أول نزوله - أى تشخصه - بأول محل وجد فيه ولا التفات لتعدده بتعدد المحالِّ الطارئ بعد ذلك فهو واحد أينما حل وكان التشخص الذى وضع العلم باعتباره غير داخل فى المسمى .

أو باعتبار وضعه للمؤلف المخصوص الذى لا يختلف باختلاف المتلفظين به للقطع بأن ما يقرؤه كل واحد منا هو القرآن المنزل على محمد ﷺ بلسان جبريل عليه السلام ولو كان عبارة عن ذلك الشخص القائم بلسان جبريل عليه السلام فقط لكان ما يقرؤه غيرهُ مماثلاً له لا عينه ضرورة أن الأعراض تتشخص بمحالِّها فتتعدد بتعدد المحل .

ومن نظر إلى ذلك جعله علم جنس وقيل هو : موضوع للقدر المشترك بين المجموع وبين أجزائه فمسماه كلى كالمشترك اللغوى .

وقيل: هو موضوع لكل واحد منهما بوضع فيكون مشتركاً لفظياً وعبارة التلويح مشتملة لهذين المعنيين حيث قال :

كل من الكتاب والقرآن يطلق عند الأصوليين على المجموع وعلى كل جزء منه لأنهم إنما يبحثون عنه من حيث إنه دليل على الحكم وذلك آية لا مجموع القرآن ، فاحتاجوا إلى تحصيل صفات مشتركة بين الكل والجزء مختصة بهما لكونه معجزاً منزلاً على الرسول مكتوباً فى المصاحف منقولاً بالتواتر فاعتبر بعضهم فى

تفسيره جميع الصفات لزيادة التوضيح وبعضهم الإنزال والإعجاز لأن الكتبة والنقل ليسا من اللوازم لتحقق القرآن بدونها فى زمن النبى ﷺ وبعضهم الإنزال والكتابة والنقل لأن المقصود تعريف القرآن لمن لم يشاهد الوحى ولم يدرك زمن النبوة وهم إنما يعرفونه بالنقل والكتابة فى المصاحف ولا ينفك عنهما فى زمانهم فهما بالنسبة إليهم من أبين اللوازم وأوضحها دلالةً على المقصود بخلاف الإعجاز [1] فإنه ليس من اللوازم البينة ولا الشاملة لكل جزء إذ المعجز هو السور أو مقدارها . أهـ .

ومن اقتصر على الإعجاز نظر إلى أنه الوصف الذاتى والآية المصدقة للرسول المثبتة لرسالته ﷺ أو قرآنيته وإن كان الإعجاز ليس بجميع أبعاضه بل بأى سورة منه أو بقدر أقصر سورة من آيه .

---

(١) يرى السكّاكى :

(أن إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولايمكن وصفها ، وكما يدرك طيب النغم العارض للصوت ولا يمكن توصيله بغير ذوى الفطر إلا بإتقان علمَىْ المعانى والبيان والتمرن فيهما) [البرهان (١/ ٣١١)] .

أما الزمخشرى :

(أن الإعجاز فى النظم البديعة والمعانى الراقية) . انظر : القرآن والمنهج العلمى المعاصر أ/ عبدالحليم الجندى ، ص ١٣ ، ط دار المعارف .

(٣) معنى القرآن عند المتكلمين :

ويطلق القرآن عند المتكلمين كما فى الألوسى[1] وغيره : على الكلمات الغيبية الأزلية من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس ، وهى الألفاظ الحكمية المجردة عن المواد مطلقاً حسية كانت أو خيالية أو روحانية المترتبة بصفته تعالى القديمة من غير تعاقب فى الوضع العلمى تحقيقاً بل تقديراً عند تلاوة الألسنة الكونية الزمانية وهو بهذا المعنى متصف بكونه منزلاً على النبى ﷺ .

****

(١) الإمام المفسر محمود الألوسى البغدادى صاحب روح المعانى .

(٤) معنى إنزال القرآن :

ومعنى تنزيله مع كونه نفسيًّا أزليًّا إظهار صورته فى المواد الروحانية والخيالية والحسية ، إذ لا معنى لإنزال الكلام النفسى إلا إنزال صورته ، ألا ترى أن ما فى النفوس البشرية من الكلام النفسى المرتب بملكاتهم إنما يظهر فى مقاطعهم وعلى ألسنتهم بصورته الحرفية الصوتية (١) وكلماته المسموعة المقروءة وأما ذاته فلا تزال قائمة بالنفس باقية بها لا تنتقل إذ هى عرض والأعراض لا يجوز عليها الانتقال ، فمعنى ذكر الكلام النفسى وإبرازه وإنزاله إظهار صورته اللفظية فى الحروف والكلمات المذكورة المنزلة .

ومن هنا قال أهل السنة :

القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق ، وهو مكتوب فى المصاحف ، محفوظ فى الصدور مقروء بالألسنة ، مسموع بالأذان غير حالٍّ فى شيء منها وهو فى جميع هذه المراتب قرآن أيضاً حقيقة شرعية معلوم من الدين بالضرورة .

أى : أن لفظ القرآن كما يطلق على الكلمات الغيبية الأزلية يطلق حقيقة شرعيه بل وعرفية ولغوية أيضاً على صورها الكونية المتجددة التى هى مظاهر

---

(١) المتأثر باندفاع الهواء من الجوف مارًّا بالمخارج محدثًا صوت الحرف مطبقًا أو منفتحًا .. مستعليًا أو مستفلاً وغير ذلك .

تلك الكلمات الغيبية المنزلة على هذه المراتب الحادثه من غير حلول فيها ولا انفصال عن ذاته المقدسة .

وفى هذه الصور الكونية [١] التى أطلق عليها لفظ القرآن علماً شخصيًّا بدون التفات إلى تعددها ، أو جنسيًّا كما تقدم ومعنى كونها منزلة على النبى ﷺ :

أى : على لسان جبريل أو فى اللوح المحفوظ أنها منشأة ومتجددة بذاتها أو بحروفها وكلماتها فى قلوبهم وألسنتهم ومجعولة برقومها [٢] فى اللوح كما يخلق الله الكلام اللفظى فى ألسنتنا والكلمات النفسية فى صدورنا .

****

---

(١) أفرد بعض العلماء المحدثين كتبًا فى الآيات الكونية والعلوم المعاصرة المتحدثة عن الفلك والفضاء والبحار وفى المناهج العلمية المعاصرة أيضاً وفى مقدمتهم د / زغلول النجار وراجع مصحف دار الصحابة فى الإعجاز العلمى .

(٢) نظامًا وترتيبًا ودقة .

(٥) لا يقال إن القرآن حادث أو مخلوق[1] :

ومع ذلك لا ينبغى أن يقال : أن القرآن بهذا المعنى حادث أو مخلوق تحاشيًا من الذهاب إلى المعنى القديم وفى مقام التعليم ينبغى الإشارة إليه بقدر ما تقتضيه ضرورة التفهيم كما وقع لابن عباس رضي الله عنهما .

فقد أخرج ابن مردويه عن طاووس قال : جاء رجل إلى ابن عباس من حضر موت فقال له : يا ابن عباس أخبرنى عن القرآن الكلام أمن كلام الله تعالى أم خلق من خلق الله سبحانه و تعالى ؟ قال : بل كلام من كلام الله تعالى أو ما سمعته سبحانه يقول :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴿٦﴾ ﴾ (التوبة: ٦) .

فقال له الرجل أفرأيت قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴿٣﴾ ﴾ (الزخرف : ٣) .

---

(١) بل هو كلام الله الأزلى القديم الذى ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (فصلت: ٤٢) . وحديث فتنة القول بخلق القرآن أيام المأمون مشهورة وقد تصدى لها الإمام الفقيه أحمد بن حنبل - رضوان الله عليه - وحبس وعذِّب ولقى ربه بسببها شهيداً وهو فى سجنه . انظر : كتب التاريخ وسير الفقهاء .

قال كتبه الله فى اللوح المحفوظ بالعربية أما سمعت الله تعالى يقول :

﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ (البروج: ٢١ – ٢٢) .

فانظر إلى ابن عباس رضي الله عنهما كيف أفهم الرجل الحضرمى وأجابه عن سؤالة وحاصله أنه يقال القرآن من كلام الله تعالى ولا يقال : أنه خلق من خلقه وما ورد عن الله تعالى من كونه مجعولاً نقول فيه إنه مكتوب أو مثبت فى اللوح المحفوظ ولا نقول مخلوق أو محدث لأن القرآن اللفظى صورة يتجلىَّ فيها الكلام النفسى كما تجلى جبريل عليه السلام فى صورة دحية الكلبى وذاته لم تفارق سدرة المنتهى وكما يتجلى الحق جل شأنه يوم القيامة فى الصور المعروفة وغير المعروفة من غير حلول واتحاد وهو – جل شأنه – متعال عن الصور والأمثال فكما لا يقال فى الصور التى يتجلى فيها الحق جل شأنه أنها خلق من خلقه سبحانه .

كذلك لا يقال للصور التى يتجلَّى فيها القرآن القديم أنها خلق من خلقه وإنما هو كلام من كلامه المنزه عن المثيل فإن نسبة كلام البشر إلى تلك الصور القرآنية كنسبة صفاتهم إلى صفاته القديمة إن كان بين النسبتين بَوْنٌ [1] بعيد .

---

(١) مسافة أو زمن .

فلذا قابل السائل بينهما حيث قال من كلام الله تعالى أم خلق من خلق الله سبحانه وإجابة حبر الأمة [1] كذلك بأنه من كلام الله لا خلق من خلقه فأفهم الأعرابى كلامه بكلامه تعالى ففهم وسكت فما ألطف البيان بالتبيان وسبحان الفتاح العظيم.

وهل أراد ابن عباس رضي الله عنهما أن القرآن الكلام وإن كان خلقاً من خلق الله تعالى ومجعولاً أى : مخلوقاً لا يطلق عليه ذلك أدباً وتحاشيًا من الذهاب إلى القديم وهو الظاهر أو أراد نفى كونه مخلوقاً لأنه صورة كلامه القديم ودال عليه ومجلى صفته النفسية والمخلوق من جوهر وعرض لا يكون كذلك بل هو أثر مباين لذاته تعالى وصفاته ليس له من الاختصاص بهما ما للقرآن الكلام من الاختصاص بصفته الأزلية وكلماته الغيبية .

والخلق إنما يطلق شرعاً وعرفاً على الأثر المباين لفاعله دون المَجْلَى والمظهر الدال على ذاته أو صفته وقد يشير إلى هذا قوله خلق من خلقه أى : من جنس مخلوقاته المباينه له التى ليست بمثابة القرآن فى النسبة إليه تعالى .

---

(١) الإمام عبدالله بن عباس رضي الله عنهما

ولـذا يقال له :

وهو فى هذه المرتبة كلام الله كما يقال لكلامه النفسى ووصفه بالمحدث - أى المتجدد - فى قوله تعالى : ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ[1] إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾ (الأنبياء: ٢) .

ليس باعتبار نفسه وإنما هو باعتبار تنزيله لأن الغرض من الآية بيان أنه كلما تجدد لهم التنبيه والتذكير ، وتكررت على أسماعهم كلمات التخويف والتحذير باعتبار نفسه ، وإنما هو باعتبار تنزيله لا يزيدهم ذلك إلا نفوراً وإعراضًا ، لا أن ذلك المنزل حادث أو قديم كما لا يخفى على ذى فهم مستقيم .

وما ورد أن الله خلق آدم على صورته فليست الصورة فيه من قبيل صورة الكلام اللفظى للكلام النفسى ، بل معناه أنه خلقه جامعاً لصفات الكمال من حياة وعلم وقدرة وإرادة وكلام وسمع وبصر ، وليست هذه فى آدم عليه السلام ولا فى غيره من ذريته مهما بلغ من الكمال مجال لصفاته تعالى وصورة لها دالة عليها دلالة القرآن الكريم على صفته النفسية وكلماته القدسية بل هى من آثاره الكونية وإن

---

(١) أى محدث تنزله أى : متجدد شيئًا . أهـ .

الفتوحات الإلهية لسليمان بن عمر العجيلى الشهير بالجمل (٣ / ١١٩) ط دار إحياء الكتب العربية .

كانت مظهر أسمائه وصفاته بمعنى متعلقها الجعلى على أن الإمام تاج الدين بن السبكى نقل عن أبى عاصم أن محمد بن إسحاق بن خزيمة المولود سنة ٢٢٣ هجرية :

قال فى معنى قوله ﷺ : ((إن الله خلق آدم على صورته))فيه سبب وهو أن النبي ﷺ رأى رجلاً يضرب وجه رجل فقال : لا تضرب على وجهه ((فإن الله خلق آدم على صورته))وكذلك قاله أبو على بن أبى هريرة فى تعليقه أهـ .

وقول أهل السنة :

القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق وهو مكتوب فى المصاحف [1] إلخ .

دال على أن تنزل القرآن القديم فى تلك المظاهر غير قادح فى قدسيته لكونه غير حالٍّ فى شئ منها مع كون كل منها قرآناً حقيقة شرعية بلا شبهة كما ذكره الألوسى وغيره .

---

(١) انظر : كتاب المصاحف للسجستانى (ص ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧) ط دار الكتب العلمية ت بيروت . ومما ورد فيه :

(حدثنا عبدالله حدثنا أحمد بن إسماعيل الأحمسى وعلى بن محمد بن أبى الخصيب قالا : حدثنا وكيع عن على بن المبارك عن أبى حُكيمة العبدى قال : كنت أكتب المصاحف بالكوفة فيمرُّ علينا علىٌّ رضي الله عنه فيقوم فينظر فيعجبه خطُّنا ويقول : هكذا نوِّروا ما نوَّر الله) .

وقد أشار فى (اليواقيت والجواهر)إلى تنزل الكلام فى الصور اللفظية حيث قال : فإن قلت : فما مثال الوحى إذا ظهر لنا بالألفاظ ؟

فالجـــواب :

أن مثال ظهور الوحى بالألفاظ مثال ظهور جبريل عليه السلام فى صورة دحية، فإن جبريل حين ظهر فيها لم يكن بشراً محضاً ولا ملكاً محضاً فكما تبدلت صورته فى أعين الناظرين ولم تتبدل حقيقته التى هو عليها فكذلك الكلام الأزلى والأمر الأحدى يتمثل بلسان العربى تارة وبلسان العبرى تارة وبلسان السريانى أخرى وهو فى ذاته أمر واحد أزلى . أهـ .

ومثل ذلك ظهور الكلام النفسى فى الصور الكتابية والخيالية [1] ومن هنا يتبين معنى ظهور القرآن فى صورة الرجل المشاحب يلقى صاحبه حين ينشق عنه القبر وظهوره خصماً لمن حمله مخالفاً أمره كما ذكره العلامة الألوسى وغيره.

****

(١) وفى القرآن الكثير منها كما فى ضرب الأمثال وسَوْق القصص وتصوير الجنة وأهلها - والنار وأهلها - والضعفاء والمستكبرون وغير ذلك .

(٦) إطلاق القرآن على الصفة القديمة :

ويطلق القرآن أيضاً عند المتكلمين على الصفة القديمة باعتبار تعلقها بكلماته الغيبية أى ترتيبها أزلاً وتعلقها بمعانى تلك الكلمات التى هى معانى صورها المنزلة المسمى كل من تلك الكلمات والسور قرآناً كما أنها تسمى توراة وإنجيلاً وزبورًا بهذا الاعتبار .

ولفظ كلام الله تعالى يطلق على ما يطلق عليه لفظ القرآن من اللفظ المنزل ومن الكلمات الغيبية الأزلية وعلى الصفة القديمة التى ليست من جنس الحروف والأصوات أصلاً بل هى واحدة بالذات تتعدد تعلقاتها المعنوية الأزلية حسب تعدد المتكلم به من الكلمات الغيبية الأزلية كما تتعدد تعلقاتها التنجيزية الإضافية الحادثة حسب تعدد تنزلاتها الكونية فى عالم المواد والصور وهى :

(بالاعتبار الأول) : متنوعة أزلاً إلى : أمر ونهى وخبر واستخبار .

(وبالاعتبار الثانى) : متنوعة فيما لا يزال إلى ذلك .

والخلاف المشهور فى كون الكلام متنوعاً فى الآذان أو فيما لا يزال منظور فيه للصفة القديمة باعتبار تعلقها بالأشيئا ء أى : دلالتها عليها من حيث كونها خبراً أو استفهاماً أو أمراً أو نهياً إلى غير ذلك .

وأما الكلام النفسى [١] : بمعنى الكلمات الغيبية أو بمعنى الصفة القديمة من حيث تعلقها بتلك الكلمات وترتيبها لها فلا نزاع فى تنوعه أزلاً كما أنه لا نزاع فى أن الكلام النفسى باعتبار تعلقه التنجيزى ليس متنوعاً أزلاً .

(٧) إطلاق القرآن وكلام الله تعالى على مابين دفتى المصحف :

وكلام الله تعالى كالقرآن يطلق أيضاً شرعاً على ما بين دفتى المصحف من الرُّقوم الدالة عليه ومعنى كونها قرآناً أنها دالة عليه ، لا أنها نفس القرآن لأن القرآن إما الصفة القديمة أو الكلمات الغيبية أو النظم المنزل على محمد ﷺ .

فإن الله سبحانه وتعالى كما هو متكلم بالوحى بكلام حقيقى حروفه عارضه للصوت وذلك يسمى قرآناً حقيقة شرعية .

كما يسمى كلام الله تعالى كذلك متكلم بكلام حقيقى حروفه ليست عارضة للصوت الحادث يسمى قرآناً كما يسمى كلام الله تعالى .

والأول : لفظ حقيقى لا تجتمع أجزاؤه فى الوجود .

والثانى : لفظ حكمى لا تعاقب فيه بل أجزاؤه مجتمعة فى الوجود وهو الكلام النفسى الحقيقى والأول صورة له ومظهر من مظاهره التى يتجلى فيها

---

(١) وهو القائم بذات الله تعالى وهو قديم قدم الذات وليس بحادث .

كلامه الحقيقى ووصفه القديم الأزلى وهو الملفوظ باللفظ الخارجى الذى هو الصورة الحادثة وإن كنا لا نطلق عليه ذلك كما تقدم .

(٨) إنــزال القــرآن :

تقدم أن القرآن يطلق على الكلمات الغيبية الأزلية وعلى الصفة القديمة القائمة بذاته تعالى وأنه بهذا المعنى يتصف بالإنزال والنزول[1] .

ومعنى إنزاله :

إظهاره من عالم الغيب إلى عالم الشهادة بإظهار صورته الكونية لدى السفرة أو فى اللوح المحفوظ أو على قلب النبى ﷺ .

كما يطلق على تلك المراتب المتجددة والصور الكونية الظاهرة ويتصف أيضاً بالإنزال والنزول والكتابة والقراءة بمعنى إظهار ذاته لا إظهار صورته قال الأصفهانى فى أوائل تفسيره كما نقله عنه صاحب الإتقان :

اتفق أهل السنة والجماعة على أن كلام الله منزل ، واختلفوا فى معنى الإنزال فمنهم من قال : إظهار القراءة .

---

(١) أى تنزله على رسول الله ﷺ حسب الأحوال وبيان الأحكام والشرائع .

ومنهم من قال :

أن الله تعالى ألهم كلامه جبريل وهو فى السماء وهو عال عن المكان وعلمه قرآءته ثم جبريل أداه فى الأرض وهو يهبط فى المكان .

وفى التنزيل طريقان:

(أحدهما): أن النبى ﷺ انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية وأخذه من جبريل .

(والثانى): أن الملك انخلع إلى البشرية حتى يأخذه الرسول منه والأول أصعب الحالتين [1] . أهـ .

وقال الرازى فى حواشى الكشاف :

والإنزال لغة : بمعنى الإيواء وبمعنى تحريك الشيء من العلو إلى أسفل وكلاهما لا يتحقق فى الكلام فهو مستعمل فيه فى معنى مجازى .

فمن قال : القرآن معنى قائم بذات الله تعالى فإنزاله أن يوجد الكلمات والحروف الدالة على ذلك المعنى ويثبتها فى اللوح المحفوظ .

---

(١) كان ﷺ إذا نزل عليه الأمين جبريل عليه السلام يُسمعُ حوله دَوِيٌّ كدَوِيِّ النحل ، وكان النبى يرتعد ويتفصد عرقًا ..

ومن قال :

القرآن هو الألفاظ فإنزاله بمجرد إثباته فى اللوح المحفوظ وهذا المعنى مناسب لكونه منقولاً عن المعنيين اللغويين .

ويمكن أن يكون المراد بإنزاله إثباته فى السماء الدنيا بعد الإثبات فى اللوح المحفوظ (١) وهذا مناسب للمعنى الثانى .

والمراد بإنزال الكتب على الرسل أن يتلقفها الملك من الله تلقفاً روحانياً أو يحفظها من اللوح المحفوظ وينزل بها ويلقيها عليه . أهـ .

والتلقف : الأخذ بسرعة ومعنى التلقف الروحانى أن يحصل له قرب واتصال روحانى فينقش فى ذاته لا من طريق السمع والكلام الذى أراد الله إرساله للرسول ويلهمه بوحيه إليه .

وقيل: الإنزال بسماع الحروف والأصوات من جميع الجهات خلاف العادة أو سماع كلامه تعالى بلا صوت على رأى من جوز سماع الكلام النفسى كما نقله عبد الحكيم عن البيضاوى فى حواشيه بعد أن حكى القولين السابقين .

****

---

(١) وللقرآن تنزلات ثلاثة :

من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة إلى السماء الدنيا .

(٩) إثبات القرآن فى اللوح المحفوظ :

والقرآن أثبت فى اللوح المحفوظ بصورة كتابية لا يعلم وقت إثباته ولا يدرك حقيقته إلا الله تعالى ومن أطلعه على غيبه ممن ارتضى من ملك أو رسول : (حتى ذكر بعضهم أن أحرف القرآن فى اللوح المحفوظ كل حرف منها بقدر جبل قاف وأن تحت كل حرف منها معانى لا يحيط بها إلا الله تعالى ومثل هذا لا يدرك إلا بالكشف أو الوحى) .

وليس بمستغرب فإن من وقف على ما تقرر فى علم الهيئة مع التفاوت الشاسع بين خلق العالم العلوى من أفلاك وكواكب وبين خلق العالم السفلى من أرض وبحار وحيوان لا يستغرب هذا التقدير فيما يكتب فى اللوح المحفوظ الذى هو فوق الكرسى وتحت الفلك الأعظم المعبر عنه فى لسان الشرع بالعرش .

وقد أخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى ذر أنه سأل النبى ﷺ عن الكرسى فقال :((يا أبا ذر : ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وأن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة))[١] .

---

(١) حديث صحيح : ابن حبان فى صحيحة حديث رقم ٣٦٢ ، [انظر السلسة الصحيحة (١٠٩)] .

وروى عن ابن عباس :((أن اللوح المحفوظ من درة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض وعرضه ما بين المشرق والمغرب)) ، وهذا كغيره مما جاء فى هذا الباب بيان منه ﷺ بقوله تعالى :

﴿ وَسِعَ (١) كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ (البقرة: ٢٥٥) .

وهو تقريب وتمثيل وإلا فالعرش واللوح والكرسى والعلم والسماوات السبع لا يدرك قدرها ولا يحيط بها إلا العلى العظيم والمراد بالمعانى المنطوية تحت حروف القرآن العظيم ما يشمل المعانى الإشارية التى يلهمها الله تعالى لأوليائه وأصفيائه والمعانى النظرية التى يدركها من القرآن من لطف ذهنه واستقام فهمه واستضاء بنور العلم والدين .

****

(١) قيل : أحاط علمه بها ، وقيل : ملكه ، وقيل : الكرسى نفسه مشتمل عليهما لعظمته لحديث :((ما السموات السبع فى الكرسىّ إلا كدراهم سبعة ألقيت فى ترس)) ابن جرير فى تفسير (٥٧٩٤) ، وانظر : تفسير الجلالين ط دار الكتب العلمية ـ بيروت (ص ٤٢) .

(١٠) إنزال القرآن إلى سماء الدنيا :

ثم أنزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا بالبيت المعمور وهو بيت العزة محل فى سماء الدنيا مسامت للكعبة بحيث لو نزل لنزل عليها ثم نزل منجماً على النبى ﷺ فى عشرين أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين سنة .

واختلف فى إنزاله من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا على ثلاث أقوال كما فى الإتقان وغيره :

(أحدها) : أنه نزل ليلة القدر جملة واحدة إلى سماء الدنيا ثم نزل إلى النبى ﷺ منجماً .

(وثانيها) : أنه نزل إلى سماء الدنيا فى عشرين ليلة قدر أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين فى كل السنة ما يقدر الله إنزاله فى السنة ثم بعد ذلك نزل منجماً فى جميع السنة .

(وثالثها) : أنه ابتدئ بإنزاله فى ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك منجماً فى أوقات مختلفة من سائر الأوقات وبه قال الشعبى .

قال ابن حجر فى شرح البخارى : والأول هو الصحيح المعتمد :

بل حكى بعضهم الإجماع عليه وكان ﷺ يأتيه الوحى بالقرآن أحياناً وفى مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليه وأحياناً فى صورة رجل فيكلمه وهو أهون عليه كما قال ﷺ ، وقد سئل عن الوحى فقال [١] :

((أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىَّ فيفصم عنى وقد وعيت ما قال وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً يكلمنى فأعى ما يقول)) [٢] وأحياناً كان ينفث فى روعى الكلام نفثاً)) .

وأحياناً يأتيه الملك فى النوم ومن هذا سورة الكوثر كما قيل وأحياناً يكلمه الله إما فى اليقظة كما فى ليلة الإسراء أو فى النوم كما فى حديث معاذ : ((أتاني ربى فقال فيم يختصم الملأ الأعلى ...)) [٣] الحديث .

---

(١) قال الطيبىّ : لعل نزول القرآن على النبى ﷺ أن يتلقفه الملك من الله تعالى تلقفًا روحانيًا أو يحفظه من اللوح المحفوظ فينزل به إلى الرسول ويلقيه عليه .
انظر : الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (١ / ١٢٥)، ط مكتبة التراث .

(٢) رواه البخارى (٢) ، ومسلم (٢٣٣٣) .

(٣) حديث صحيح : رواه أحمد والترمذى [مشكاة المصابيح (٧٤٨)] .

وقال فى الإتقان :

وليس فى القرآن شيء من هذا النوع فيما أعلم يمكن أن يعد منه آخر سورة البقرة كما تقدم وبعض سورة الضحى وألم نشرح إلى آخر ما ذكره فراجعه .

ثم قال أبو شامة :

فإن قيل : ما السر فى نزول القرآن منجمًا (١) وهلّا نزل كسائر الكتب جملة؟

قلنا :هذا سؤال قد تولى الله جوابه فقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴿٣٢﴾ ﴾ (الفرقان : ٣٢) .

يعنُون كما أنزل على من قبله من الرسل فأجابهم تعالى بقوله : كذلك أى أنزلناه كذلك مفرقاً لنثبت به فؤادك أى : لنقوى به قلبك فإن الوحى إذا كان يتجدد فى كل حادثة كان أقوى للقلب وأشد عناية بالمرسل ويستلزم ذلك كثرة

---

(١) قال صاحب الإتقان : الجواب: أن معناه – إن صحَّ – إلقاؤه إلى النبى ﷺ هذا القدر حتى يحفظه ثم يلقى إليه لا إنزاله بهذا القدر خاصة ذلك ما أخرجه البيهقى أيضاً عن خالد بن دينار قال : قال لنا أبو العالية:: تعلموا القرآن خمس آيات فإن النبى ﷺ كان يأخذه من جبريل خمساً خمساً ...) [الإتقان (١ / ١٢٥)] .

نزول الملك إليه وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة .

ولهذا كان أجود ما يكون فى رمضان لكثرة لقياه جبريل حتى كان يعارضه القرآن كل سنة فى شهر رمضان مرة فلما كان العام الذى قبض فيه عارضه مرتين وهذه العرضة الأخيرة التى عليها قراءة الناس اليوم .

كما جاءت به الآثار وأجمع الناس عليها وعليها كانت كتابة المصاحف العثمانية بإجماع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

والمستفاد من الأحاديث الصحيحة وغيرها أن :

القرآن كان ينزل بحسب الحاجة خمس آيات عشر آيات وأكثر أو أقل وقد صح نزول العشر آيات فى قصة الإفك [1] جملة ، وصح نزول عشر آيات من أول المؤمنين جملة ، وصح نزول ﴿ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ ﴾ (النساء: ٩٥) وحدها وهى

---

(١) والتى أشار إليها القرآن فى سورة النور بالآيات ١١ : ٢٠ من قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ (سورة النور : ١١) .

إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة النور: ٢٠) .

بعض آية وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ (التوبة : ٢٨) إلى آخر الآيات نزلت بعد نزول أول الآية .

(١١) إعجاز القرآن فى أسلوبه العربى :

ثم القرآن فى مرتبة نزوله إلى الألفاظ الحقيقية العربية هو المعجز أى أنه فى هذا الأسلوب العربى معجز وتنزله فى مراتبه الحادثة لا يخرجه عن كونه منسوباً إليه تعالى وأنه كلامه كما تقدم .

أما فى مرتبته فلقوله ﷺ :

« أغنى الناس حملة القرآن »[1] من جعله الله تعالى فى جوفه .

وأما فى مرتبة اللفظ المسموع فقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ[2] إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(الأحقاف : ٢٩) .

---

(١) ضعيف : أخرجه ابن عساكر [ضعيف الجامع (٩٨٩)] .

(٢) قال ابن عباس رضي الله عنهما :

(وجهنا إليك جماعة ﴿ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ وهم تسعة رهط ببطن نخل) .

وأما فى مرتبة الكتابة فقوله تعالى :

﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ[١] ﴿٢٢﴾ ﴾

(البروج : ٢١ - ٢٢) .

والصحيح أنه جميع كلمات القرآن المنزلة على النبى ﷺ وأن نحو :

﴿ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ ﴾ (المزمل: ٦) و ﴿ أَوَى ﴾ (الكهف: ١٠)

و ﴿ سِجِّيلٍ ﴾ (هود : ٨٢) و ﴿ قَسْوَرَةٍ ﴾ (المدثر : ٥١) .

من الأحرف التى اتفق فيها ألفاظ العرب وغيرها من بعض أجناس الأمم .

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ :

وليس بمستنكر أن يكون من الكلام ما يتفق فيه ألفاظ جميع أجناس الأمم المختلفة الألسن بمعنى واحد فكيف بجنسين منها كالفرس والعرب وفى هذه الحالة يصح النسبة إلى كلتا اللغتين أو اللغات لأن من نسب شيئاً من تلك إلى لغة

---

(١) هو فى الهواء فوق السماء السابعة ﴿ مَّحْفُوظٍ ﴾ من الشياطين ومن تغيير شيء منه طوله ما بين السماء والأرض وعرضه ما بين المشرق والمغرب وهو درَّةٍ بيضاء . قاله ابن عباس رضى الله عنهما .

لم ينف بنسبته إياه إلى ما نسبه إليه أن يكون من لغة أخرى وإنما يكون الإثبات دليلاً على النفى فيما لا يجوز اجتماعه من المعانى [١] . أهـ .

وفى كثير من اللغات الحية ألفاظ مشتركة ترجع فى وضعها إلى الأصل الذى تفرعت منه هذه اللغة تشترك هذه اللغات فى مادة الكلمة ولكنها تختلف فى هيئتها تبعاً للاستعمال وثقل الألسنة كما يوجد ذلك كثيراً فى الكلمات المعربة التى أخذها العرب من الفارسية [٢] وصقلوها بألسنتهم وأجروا عليها خصائص لغتهم .

****

(١) انظر تفسير الطبرى (١ / ١٦) .

(٢) كالألفاظ :

﴿ سُندُسٍ - وَإِسْتَبْرَقٍ - مُتَّكِـِٔينَ - ٱلْأَرَآئِكِ - إِبْرَٰهِيمُ - إِسْحَٰقَ - وَتَمَاثِيلَ مَحَـٰرِيبَ ﴾

(١٢) القرآن عربى بالنص :

وكونه مجعولاً عربياً بالنص كما قال الله تعالى :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا [١] لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (الزخرف: ٣) .

فالأسلوب العربى معتبر فى مفهومه بل لا يطلق اسم القرآن معرفا شرعاً إلا على اللفظ العربى المعجز فإذا كان غير عربى أو عربيًّا غير معجز لا يسمى قرآناً بالتعريف نعم لإطلاق القرآن على الألفاظ الحقيقية العربية المعجزة .

إنما هو من حيث دلالته على المعنى المستفاد فهو اسم للنظم العربى الدال على المعنى المنزل للإعجاز والتدبر والتذكر كما أن القرآن بمعنى الكلمات الغيبية اسم للألفاظ الحكيمة الدالة على المعنى .

ومن هنا قال بعض المحققين :

القرآن اسم لمجموع النظم والمعنى المستفاد فمجرد النظم لا يسمى قرآناً كما أن المعنى لا يطلق عليه اسم القرآن إلا على ضرب من التجوز وإقامة المعنى مقام اللفظ ومنه قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾ (الشعراء: ١٩٦) .

---

(١) أى بلغة العرب .

وفيها المعنى دون اللفظ أطلق عليه اسم القرآن لأنه الركن المقصود حتى جعل كأنه القرآن ووصف بقوله : ﴿ زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ لأن المعنى يسمى قرآناً حقيقة لمخالفته للنصوص القطعية .

وللإجماع على أن القرآن اسم للنظم العربى الدال على المعنى المستفاد فلا يتأول إلا ما نزل به الروح الأمين من النظم المعجز ولا دلالة فى الآية على أن القرآن يطلق على غير الأسلوب [1] العربى من أى لغة كانت .

أما على أن المراد بقوله : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾ أن ذكر القرآن فى الكتب المتقدمة بناء على أن الضمير للقرآن والكلام على حذف مضاف وهذا كما يقال : أن فلاناً فى دفتر الأمير فظاهر وأما على أن المراد به : أن معناه فى الكتب المتقدمة فليس فيه إلا إطلاق اسم القرآن على المعنى دون إطلاقه على ترجمته بأسلوب آخر وقد علمت وجهه وأنه على ضرب من التجوز وفى الكشف أن القرآن إن كان هو المنزل للإعجاز إلى آخر ما يذكر فى معناه فلا شك أن الترجمة ليست بقرآن وإن كان هو المعنى القائم بصاحبه فلا شك أنه غير ممكن القراءة .

---

(١) وفيه إشارة إلى ردِّ ما نقل عن أبى حنيفة من جواز القراءة بالفارسية فى الصلاة والاحتجاج له بهذه الآية الكريمة لكونه سمّى مافى زبر الأولين قرآناً وهو معناه لا لفظه . وقد قيل : إن الصحيح من مذهبه أن الأولين كالتوارة والإنجيل والزبور .. إلخ . انظر : الفتوحات الإلهية للجمل (٣ / ٢٩٣) .

فإن قيل :

هو المعنى المعبر عنه بأى لغة كانت قلنا لا شك فى اختلاف الأسامى باختلاف اللغات فكما لا يسمى القرآن بالتوراة ولا تسمى التوراة بالقرآن فالأسماء لخصوص العبارات فيها مدخل لا أنها لمجرد المعنى المشترك . أهـ .

نعم لفظ قرآن منكراً لم ينقل من معناه اللغوى فيتناول كل مقروء بأى لغة كانت كما يشهد له قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴿٤٤﴾ ﴾ (فصلت: ٤٤) .

فإنه يستلزم تسميته قرآناً أيضاً لو كان أعجمياً فليس لخصوص العبارة العربية مدخل فى تسميته قرآناً بالتنكير بخلاف المعرَّف فقد أطبقوا [١] على أنه اللفظ العربى وأنه لخصوص العبارة العربية مدخلٌ فى تسميته قرآناً كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴿٣﴾ ﴾ (الزخرف : ٣) .

وقد جاء كذلك فى الآية الدالة على وجوب القراءة أعنى قوله تعالى:

---

(١) أى : أجمعوا واتفقوا .

﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ [1] مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ ٢٠﴾ (المزمل: ٢٠).

أمر بقراءة القرآن فى الصلاة والقرآن المعرف هو اللفظ المنزل بلغة العرب فلا يكون الفارسى ونحوه قرآناً فلا يخرج به عن عهدة الأمر .

ولذا ذهب الشافعى رضي الله عنه إلى :

عدم جواز القراءة فى الصلاة بغير العربية سواء كان يحسن العربية أولا .

وقال أبو يوسف ومحمد بن الحسن :

إن كان يحسن العربية لا يجوز وإن كان لا يحسنها جاز نظراً إلى أنه إذا لم يحسن العربية فقد عجز عن مراعاة لفظه فيجب عليه مراعاة معناه ليكون التكليف بحسب الإمكان .

وإلى قولهما كما صح رجع الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه وعليه الاعتماد كما فى فتح القدير بعد أن كان يقول بالجواز فى الصلاة مطلقاً أحسن العربية أم لا معللاً ذلك بأن الواجب فى الصلاة قراءة القرآن من حيث هو لفظ دال على كلام الله تعالى الذى هو صفة قائمة به من حيث هو لفظ عربى ومعنى الدلالة عليه لا تختلف بين لفظ ولفظ قال تعالى:

---

(١) أى : بما يتسر فى الصلاة ، وقيل : ما تيسر عليكم فى الصلاة مائة آية فصاعداً ، وقيل : ما شئتم من القرآن . انظر : تنوير المقباس من تفسير ابن عباس .

﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ١٩٦ ﴾ (الشعراء: ١٩٦) .

ومعلوم أنه ما كان بهذا اللفظ بل بهذا المعنى وكون العربية قرآناً لا ينفى أن يكون غيرها قرآناً لأنها سميت قرآناً لدلالتها على ما هو القرآن وهى الصفة التى هى حقيقة القرآن ومعنى الدلالة يوجد فى الفارسية مثلاً فجاز تسميتها قرآناً دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ[١] ٤٤ ﴾ (فصلت : ٤٤) .

فقد أخبر أنه لو عبر عنه بلسان العجم كان قرآناً (انظر بدائع الصنائع ، والبحر الرائق) .

وقد علمت ما فيه وأن الوجوب فى الآية متعلق بالقرآن المعرف والمفهوم منه فى عرف الشرع إنما هو اللفظ العربى الدال على المعنى المستفاد دون المعنى فقط ودون لفظ آخر فإذا زال اللفظ العربى لم يكن المعنى قرآناً فلا معنى للإيجاب وإنما وجب حال العجز عند الصالحين والإمام[٢] على ما رجع إليه أخيراً لما تقدم .

---

(١) أى : قرآن أعجمى وقرآن عربى كيف هذا ؟ انظر : تنوير المقباس ..

(٢) أى: أبو حنيفة النعمان رضي الله عنه وأرضاه .

وإن كان للشافعى أن يمنع وجوب مراعاة المعنى عند العجز عن اللفظ العربى لأنه ليس بقرآن وليس فى الآية ما يفيد وجوب مراعاته ولو سلم دلالتها عليه بإرادة التبعيض فى قوله تعالى :

﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ ﴾ (المزمل : ٢٠) .

ما يشمل التلفظ به وملاحظة معناه وما قيل : أن النظم مقصود للإعجاز وحالة الصلاة المقصود من القراءة فيها المناجاة لا الإعجاز فلا يكون النظم لازماً فيها فمردود لأنه معارضة للنص بالمعنى فإن النص طلب بالعربى وهذا التعليل يجيزه بغيرها وأما قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ[1] ﴿١٩٩﴾ ﴾ (الشعراء: ١٩٨ - ١٩٩) .

فمعناه والله أعلم كما فى الألوسى وغيره :

لو نزلنا القرآن كما هو بنظمه الرائق المعجز على بعض الأعجمين فقرأه ذلك البعض عليهم قراءة صحيحة خرقاً للعادة ما كانو به مؤمنين لفرط عنادهم وشدة شكيمتهم فى المكابرة أو فقرأه محمد ﷺ وفهموه

---

(١) أخبر الله تعالى عند كفار قريش وعنادهم لهذا القرآن وأنه لو نزل على رجل من الأعاجم ممن لا يدرى من العربية كلمة وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته لا يؤمنون به . انظر : تفسير ابن كثير (٣ / ٣٧٣ ، ٣٧٤) ط دار الفوائد ـ دار ابن رجب .

خرقاً للعادة أيضاً ما كانو به مؤمنين فكذلك هؤلاء لأنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ولو سلم أن المراد بقوله:

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ (الشعراء : ١٩٨) .

بلغة العجم ﴿ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾

(الشعراء : ١٩٩)

فمع بعده عما يقتضيه مقام بيان تماديهم فى المكابرة والعناد فقد أجيب عنه بأن ضمير نزلناه ليس راجعاً إلى القرآن المخصوص المأخوذ فى مفهومه العربى بل إلى مطلق القرآن ويراد منه ما يقرأ أعم من أن يكون عربيًا أو غيره وهذا نحو رجوع الضمير للعام فى ضمن الخاص كما فى :

﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ (فاطر : ١١) .

فإن ضمير - عمره - راجع إلى شخص بدون وصفه بمعمر إزلا يتصور نقص عمر لمعمر كما لا يخفى وبالجملة فنصوص الكتاب والسنة دالة على اعتبار العربية فى مفهوم القرآن.

فقد أخرج البيهقى من طريق يونس عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التميمى عن أبيه من حديث فيه طول قال رجل :

يا رسول الله ما أفصحك ؟ ما رأينا الذى هو أعرب منك قال :

(حق لى فإنما نزل القرآن علىَّ بلسان عربى مبين)[1] .

كما قال تعالى :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (الشعراء:١٩٣ – ١٩٥) .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«أنا عربى والقرآن عربى وكلام أهل الجنة عربى»[2] .

---

(١) تفسير ابن أبى حاتم (١٤٨٩٧) .

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٦٩٥) .

وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول :

ما أنزل الله كتاباً إلا بالعربية إذ هى أوسع اللغات ولكن كان جبريل عليه السلام يترجم لكل نبى بلسان (١) قومه وليس فى القرآن العظيم إلا لغة العرب وربما وافقت اللغة منه غير لغة العرب والأصل عربى لا يخالطة شيء وكانت العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وتباين بطونهم وأفخاذهم وفصائلهم ترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم لتأخذ عنه القرآن فكان صلى الله عليه وسلم يترجم لكل قبيلة بحسب لغتها من قبائل قريش وكنانة وحِمْيَرَ وهذيل وطيئ وجرهم ومدلج وغيرهم من قبائل العرب .

فربما أطال المد أو قصره لمن لغته كذلك وربما فخم لمن لغته التفخيم وربما أمال لمن لغته الإمالة وربما أدغم لمن لغته الإدغام وربما رقق لمن لغته الترقيق وهكذا فى سائر الأداء والأحكام التى أمرنا بها ونهانا عنها فى القرآن كلها واحدة

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ (سورة إبراهيم: ٤) .

لا تتغير فى جميع القراءت فلما وقع الضبط وأخذ القراء القراءات عن القبائل [١] ضبط كل إنسان ما سمع فقط إذ القياس هنا ممنوع وجميع التراجم كلها قرآن عربى منزل أوحى به إلى رسول الله ﷺ ولو جاز أن يترجم من القرآن بغير ما أوحى به إليه بلسان عربى لم يخرج عن مرتبتين لأنه إما أن يترجم بلفظ مساوٍ للوحى أو دونه لأنه إن كان دونه لم يصدق عليه أنه ﷺ بلغ ما أنزل من ربه وذلك محال فى حقه وإن كان مساوياً فلا فائدة فى العدول عن الوحى من الله بلفظ مساوٍ له على أنه لا يقدر عليه لإعجازه فما بقى إلا أنه ﷺ بلغ ما أنزل إليه من ربه بحروفه العربية الحاملة لمعانيه القديمة التى لا تتغير .

****

(١) المشهورة كقريش وهذيل وتميم والأزد وهوازن ممن استقام لسانهم وسلمت لغتهم ومعروف أن القراءات سماعية . راجع كتب القر

(١٣) حديث نزل القرآن على سبعة أحرف :

وروى جمع من الصحابة يبلغ عددهم واحدًا وعشرين صحابيًّا حديث : ((أنزل القرآن على سبعة أحرف)) [١] حتى نص أبو عبيدة على تواتره واختلف فى معناه على أقوال كثيرة ذكرها صاحب الإتقان [٢] وبين مالها وما عليها والمختار منها أن المراد سبع لغات .

وإليه ذهب أبو عبيدة وثعلب والزهرى وآخرون واختاره ابن عطية وصححه البيهقى فى الشعب .

وجاء عن أبى صالح عن ابن عباس قال : نزل القرآن على سبع لغات منها خمسة بلغة العجز من هوازن ويقال لهم علياء هوازن .

ولهذا قال أبو عمرو بن العلاء : وأفصح العرب علياء هوازن وسفلى تميم يعنى بنى دارم .

---

(١) .
(٢) للحافظ جلال الدين السيوطى (١/ ١٢٩)

قال أبو عبيد : ليس المراد أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات بل اللغات السبع مفرقة فيه فبعضه بلغة قريش وبعضه بلغة هذيل وبعضه بلغة هوازن وبعضه بلغة اليمن [1].

ومعناه أن جبريل عليه السلام كان يأتى فى كل عرضة بحرف إلى أن تمت السبعة وذلك تخفيف وتيسير على الأمة فى التكلم بكتابهم كما خفف عنهم فى شريعتهم هذا هو المعول عليه .

وقال ابن قتيبة : لم ينزل القرآن إلا بلغة قريش واحتج بقوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴿٤﴾ ﴾ (إبراهيم: ٤) .

فعلى هذا تكون اللغات السبع فى بطون قريش وبذلك جزم أبو على الأهوازى .

وذكر الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره المسمى (جامع البيان) عدة روايات فى حديث ((نزل القرآن على سبعة أحرف)) قال :

---

(١) فى بعض الأقوال . وقيل : السبع كما فى الزيادة والنقصان والحذف والإثبات والتقديم والتأخير والاستفهام .

وفى حديث أبىٍّ بن كعب أنه قال : سمعت رجلاً يقرأ فى سورة النحل قراءة تخالف قراءتى ثم سمعت آخر يقرؤها قراءة تخالف ذلك فانطلقت بهما إلى رسول الله ﷺ .

فقلت : إنى سمعت هذين يقرآن فى سورة النحل فسألتهما من أقرأكما فقالا : رسول الله ﷺ فقلت : لأذهبن بكما إلى رسول الله ﷺ إذ خالفتما ما أقرأنى ﷺ فقال رسول الله ﷺ لأحدهما اقرا فقرأ فقال أحسنت ثم قال للآخر : اقرأ فقرأ فقال له : أحسنت قال أبىٌّ فوجدت فى نفسى وسوسة الشيطان حتى احمر وجهى فعرف ذلك رسول الله ﷺ فى وجهى فضرب بيده فى صدرى ثم قال : اللهم أخسئ الشيطان عنه يا أبىّ أتانى آتٍ من ربى ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد فقلت : ربِّ خفف عنى ثم أتانى الثانية وهكذا إلى الرابعة ، فقال له :

إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف [1] وزاد فى رواية عبد الرحمن بن أبى بكر عن أبيه : كلها شافٍ كافٍ مالم يختم آية عذاب بآية رحمة أو آية رحمة بآية عذاب والمراد أنه وسَّع له ﷺ بتوقيف إلهى ووحى سماوى أن يقرأ ويقرئ

---

(١) كما ورد ذكره وهى القراءات السبع ويطلق الحرف ويراد به القراءة وتم بسط الكلام فيه فى الكتب فليراجع ، وقد روى هذا الحديث مسلم بنحوه .

أمته بما نزله من هذه الأحرف كما يشير إليه حديث ابن عباس حيث قال ﷺ : قد وسع لى أن أقرئ كل قوم بلغتهم بعد أن كان جبريل عليه السلام ينزل فى كل عرضة بذلك (١)

وليس المراد أن يقرأ ما يشاء تحت هذا الضابط فإن ذلك لا يقول به أحد من المسلمين وفى رواية أخرى : على سبعة أحرف لا تختلف فى حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهى كقوله : تعال وهلم وأقبل .

وفى رواية كقراءة ابن مسعود : ﴿ إن كانت إلاَّ زقية واحدة ﴾ .

وقراءة غيره : ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ (يس : ٥٣) .

قال ابن هشام : بلغنى أن تلك السبعة أحرف إنما هى فى الأمر الذى يكون واحد لا يختلف فى حلال ولا حرام .

---

(١) أى فى العرْضات التى كان ينزل فيها جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ فيعرض عليه القرآن حتى العام الأخير فى حياة النبى ﷺ فعرض عليه القرآن عرضتين ، حتى إن الرسول ﷺ قال : ما أُراه إلا قد حضر أجلى .

راجع تاريخ المصحف للقاضى ، وكذا الجمع الصوتى الأول للقرآن ، ط دار المعارف د / لبيب السعيد .

وعن هشام بن على عن زيد بن علقمة النخعى [١] قال: لما خرج عبد الله بن مسعود من الكوفة اجتمع إليه أصحابه فودَّعهم ثم قال: لا تنازعوا فى القرآن فإنه لا يختلف ولا يتلاشى ولا ينفد بكثرة الردِّ وإنَّ شريعته الإسلام وحدوده وفرائضه فيه واحدة ولو كان شيء من الحرفين ينهى عن شيء يأمر به الآخر كان ذلك الاختلاف ولكنه جامع ذلك كله لا تختلف فيه الحدود والفرائض ولا شيء من شرائع الإسلام، ولقد رأيتنا نتنازع فيه عند رسول الله ﷺ فيأمر أن نقرأ عليه فيخبرنا أن كلنا محسن ولو أعلم أحدًا أعلم بما أنزل الله على رسوله منى لطلبته حتى أزداد علمه إلى علمى ولقد قرأت من لسان رسول الله ﷺ سبعين سورة قد كنت علمت أنه يعرض عليه القرآن فى كل رمضان حتى كان عام قبض فعرض عليه مرتين فكان إذا فرغ أقرأ عليه فيخبرنى أنى محسن فمن قرأ على قراءتى فلا يدعنها رغبة عنها ومن قرأ على شيء من هذه الحروف فلا يدعنه رغبة عنه فإن من جحد بآية جحد به كله.

إلى غير ذلك من الأخبار الدالة على أن اختلاف الأحرف السبعة إنما هو اختلاف ألفاظ وتلاوة لا اختلاف معان موجبة لاختلاف أحكامه فإن تماريهم فى

---

(١) تاريخ القرآن للكردى (١ / ٨٢).

القرآن واحتكامهم فيه إلى رسول الله ﷺ بهذه الكيفية يدل على أن خلاف بعضهم بعضاً إنما هو فى نفس التلاوة [1] لا فى معناها .

قال أبو جعفر معنى قول النبى ﷺ : ((نزل القرآن على سبعة أحرف)) و: ((أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف)) أنه نزل بسبع لغات وأمر بقراءته على سبعة ألسن .

والمراد بكونه لا يختلف نفى الاختلاف الموجب للتناقض والتضاد كما قال ولو كان شيء من الحرفين ينهى عن شئ يأمر به الآخر كان ذلك الاختلاف يعنى المشار إليه بقوله تعالى :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(النساء: ٨٢) .

---

(١) فقد روى عن أبىّ بن كعب رضي الله عنه قال : لقى رسول الله ﷺ جبريل عند أحجار المراء فقال : (وإنى بعثت إلى أمة أميين منهم الغلام والخادم والشيخ العاسى والعجوز ((الكبيرة والغلام))) فقال جبريل : (فليقرؤوا والقرآن على سبعة أحرف) إسناد صحيح [رواه أحمد فى المسند (٢ / ١٣٢)] .

راجع تاريخ القرآن ص ٨٦ د / عبدالصبور شاهين ، ط دار الاعتصام .

وذلك محال وأما اختلاف الأحرف المذكورة ومثلها القراءات المشهورة فى التلاوة أو المعنى الذى لا يوجب تناقضاً فذلك واقع فى القرآن لفوائد لا تحصى وقد تعرض لبيان شيء منها علماء القراءات والتفسير .

(١٤) حديث نزل القرآن فى سبعة أبواب :

ثم قال أبو جعفر : وكما أنزل القرآن على سبعة أحرف بهذا المعنى نزل على سبعة أحرف كما ورد بمعنى الوجوه المتنوعة فقد روى عن ابن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال : ((كان الكتاب الأول نزل من باب واحد على حرف واحد ونزل القرآن من سبعة أبواب[1] على سبعة أحرف : زجر وأمر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وافعلو ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا به كل من عند ربنا))[2].

---

(١) قال ابن قتيبة ت : ٢٧٦ هجرية :

(هى سبعة أوجه من اللغات متفرقة فى القرآن) وقال فى موطن آخر : (السبعة الأحرف : وعدد وعيد وحلال وحرام ومواعظ وأمثال واحتجاج) . انظر : تاريخ القرآن (ص ٦٤) .

(٢) حديث حسن : أخرجه الطبرانى [انظر الصحيحة (٥٨٧)] .

وعن أبى قلابة قال بلغنى أن النبى ﷺ قال :

((أنزل القرآن على سبعة أحرف أمر وزجر وترغيب وترهيب وجدل وقصص ومثل))[١].

إلى غير ذلك من الأحاديث التى تفهم أن القرآن نزل على سبعة أوجه من المعانى.

ولكن هذه الأوجه السبعة ليست معنى للأحرف السبعة الواردة فى الأخبار المتقدمة وأشار بقوله ﷺ فى الحديث المار على حرف واحد وعلى سبعة أحرف إلى من خصه الله به وأهله من الفضيلة والكرامة التى لم يؤتها أحدا فى تنزيله فإن كل كتاب من الكتب المتقدمة إنما نزل بلسان واحد متى حول إلى غير اللسان الذى نزل به كان ذلك ترجمة له وتفسيراً لا تلاوة له على ما أنزل الله وأنزل كتابنا بألسن سبعة بأى تلك الألسن السبعة تلاه التالى كان له تالياً على ما أنزل الله لا مترجماً ولا مفسراً حتى يحوله عن تلك الألسن السبعة إلى غيرها فيصير فاعل ذلك حينئذ إذا أصاب معناه مترجما له ومفسراً لا تالياً على ما أنزله الله وعنى

---

(١) أخرجه ابن جرير فى تفسيره (٧ / ٦٦) .

بقوله ﷺ : ((كان الكتاب الأول نزل من باب واحد ونـزل القرآن مـن سـبعة أبواب))[١] .

أن ما نزل من كتب الله تعالى على أنبيائه إنما نـزل بـبعض المعـانى الـسبعة لا بجميعها ، كزبور داود فإنه نزل بالتـذكير والمـواعظ ، وإنجيـل عيـسى فإنـه نـزل بتمجيـد ومحامـد وحـض عـلى الـصفح والإعـراض دون غيرهـا مـن الأحكـام والشرائع[٢] .

وحينئذ لا يجد المتعبدون بإقامتها لـرضى الله تعـالى مطلبـاً ينـالون بـه الجنـة ويستوجبون منه القربة إلا من الوجه الذى أنزل به وذلك هو البـاب الواحـد مـن أبواب الجنة الذى نزل به ذلك الكتاب ، بخلاف كتابنا الـذى خـص الله بـه نبينـا محمداً ﷺ وأمته فإنه نزل على أوجـه سبعة أى مـن الوجهـة التـى ينـالون بهـا رضوان الله ويدركون بها الفوز بالجنة إذا أقاموها فلكل وجـه مـن أوجـه الـسبعة باب من أبواب الجنة التى نزل بها القرآن لأن العامل بكل وجه من أوجهه الـسبعة عامل على باب من أبواب الجنة ، وطالب من قبله الفوزية .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) وكذا ألواح موسى عليه السلام .

فالعمل بما أمر الله - جل ذكره - فى كتابه باب من أبواب الجنة، وترك مانهى الله عنه فيه باب آخر ثان من أبوابها، وتحليل ما أحل الله فيه باب ثالث من أبوابها، وتحريم ما حرم الله فيه باب رابع من أبوابها، والإيمان بحكمه فيه باب خامس، والتسليم بمتشابهه فيه باب سادس، والاعتبار بأمثاله والاتعاظ بعظاته فيه باب سابع من أبوابه.

فجميع ما فى القران من حروفه السبعة وأبوابه السبعة التى نزل منها جعله الله لعباده إلى رضوانه هادياً ولهم إلى الجنة قائداً فذلك معنى قوله ﷺ «نزل القرآن من سبعة أبواب». أهـ ملخصاً[1].

****

(١) وقد أورد الشيعة حجة لاتنهض لأن تكون دليلاً البتة حيث قال الخوئى: (إن القرآن إنما جاء على حرف واحد وأن الاختلاف قد جاء من قبل الرواة).
انظر: تاريخ القرآن (ص ٦٣).

الفَصْلُ الثَّانِي

في حكم تجويد القرآن وأركان قراءته

في حكم تجويد القرآن وأركان قراءته

وقد فرض الله تعالى على الأمة ضبط القرآن وتعلمه وروايته على الوجه الذي نزل به بمعنى أنه يجب أن يكون في كل عصر طائفة من الأمة تبلغ حد التواتر يقومون بتحمله وروايته باللغة التي نزل بها ويحفظونه من التحريف والتغيير والتبديل .

وأن يكون فيهم من يعرف أوجه القراءات والطرق والكيفيات المتلقاة من أفواه الشيوخ طبقة عن طبقة إلى رسول الله ﷺ .

وقد ذكر الإمام النووي في كتابه (التبيان في آداب حملة القرآن):
أن النصيحة لكتاب الله تعالى أي : الواردة في حديث (الدين النصيحه) إلخ ...

هي الإيمان بأنه كلام الله تعالى وأنه منزل من عنده لا يشبهه شيء من كلام الخلق وتعظيم تلاوته حق تلاوته وتحسينها والخشوع عندها وإقامة حروفه والذبِّ عنه من تأويل المحرفين وتعرض الطاعنين والتصديق بما فيه والوقوف مع أحكامه وتفهم علومه وأمثاله والاعتبار بمواعظه والتفكر في عجائبه والعمل بمحكمه والتسليم بمتشابهه [1] أهـ .

---

(١) انظر التبيان في آداب حملة القرآن (١٢١) ط دار الصحابه للتراث بطنطا .

وكان عليه الصلاة والسلام يقرأ القرآن كما أنزل ويرتله [١] كما أمر وكان من دأبه إذا تكلم تكلم بكلام متصل مبين يعدُّه العاده .

قالت عائشة : ما كان رسول الله ﷺ يسرد سردكم هذا بل كان يحدث حديثاً لو عدَّه العادُّ لأحصاه [٢] وكان يعيد الكلمة ثلاثاً لتعقل عنه [٣] ونهى ﷺ عن الهذرمة بالقرآن وهى الإسراع بقراءته .

وروى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال لنُهيكِ بن سنان حين قال له إنى لأقرأ المفصل فى ركعة (هذًّا كهذ الشعر) [٤] يريد النهى عن شدة الإسراع والإفراط فى العجلة والحث على الترتيل والتدبر كما فى شرح النووى على مسلم [٥] .

---

(١) كما قال تعالى : ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾ (المزمل: ٤) .

وكقوله أيضًا : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ (القيامة : ١٦ – ١٧) .

(٢) متفق عليه : [مشكاة المصابيح (١٨١٥)] .

(٣) حسن صحيح : رواه الترمذى [انظر صحيح سنن الترمذى (٣٦٤٠)] .

(٤) صحيح : رواه البخارى (٤٧٥٦) ، ومسلم (٨٢٢) .

(٥) انظر شرح النووى لمسلم (٦/ ١٠٥) .

وقد أجمعوا على أن النقص فى كيفية القرآن وهيئته كالنقص فى ذاته ومادته فترك المد والغنة والتفخيم والترقيق كترك حروفه وكلماته [١] .

ومن هنا وجب تجويد القرآن كما قال الإمام ابن الجزرى :

والأخذ بالتجويد حتم لازم   من لم يجود القرآن آثم

لأنه به الإله أنزلا   وهكذا منه إلينا وصلا

فالتجويد وهو :

إعطاء الحروف حقها وترتيلها وردٌّ كل حرف إلى مخرجه وتلطيف النطق به على كمال هيئته من غير إسراف ولا تعسف ولا إفراط ولا تكلف [٢] أمر واجب فى حفظ القرآن وتلاوته وتركه بدعة منكرة .

فإن الأمة كما هى متعبدة بفهم معانى القرآن وإقامة حدوده وأحكامه فى كل باب بما يناسبه ، متعبدة بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه على الصفة المتلقاة من أئمة القرآن المتصلة بالحضرة النبوية .

---

(١) وضابط ذلك الأداء والتلقى عن الشيوخ .

(٢) قال ابن الجزرى رحمه الله :

مكملاً من غير ما تكلُّف   باللطف فى النطق بلا تعسُّف

فرققن مستفلا من أحرف   وحاذرن تفخيم لفظ الألف ... إلخ

وقد عد العلماء القراءة بغير تجويد لحنًا وقسموا اللحن إلى : جلى وخفى :

(فالجلى) : ما يخل بالألفاظ إخلالاً ظاهراً يشترك فى معرفته علماء القراءة وغيرهم كالخطأ فى الإعراب .

(والخفى) : ما يخل إخلالاً يختص بمعرفته علماء القراءة وأئمة الأداء الذين تلقوه من أفواه العلماء وضبطوه من ألفاظ أهل الأداء وقد صح أن النبى ﷺ سمى قارئ القرآن بغير تجويد فاسقاً وربما دخل فى وعيد قوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (الزمر: ٦٠) .

وقوله ﷺ : ((من كذب علىَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار))[١] .

وأجمعت الأمة على وجوب التجويد من زمن النبى ﷺ إلى زماننا[٢] ولم يختلف فيه أحد منهم .

---

(١) أخرجه البخارى (١١٠) ، ومسلم (٤) .

(٢) وقد أجمع العلماء على أن لتجويد فرض على كل حافظٍ وتالٍ للقرآن .

وقد جاء عن على - كرم الله وجهه - فى :

قوله تعالى : ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾ (المزمل: ٤) .

قال : الترتيل هو :

تجويد الحروف ومعرفة الوقوف .

وفى شرح منظومة الإمام السخاوى :

كل حرف له ميزان يعرف به مقدار حقيقته وذلك الميزان هو مخرجه وصفته فإذا خرج من مخرجه وأعطى ماله من الصفات على وجه العدل من غير إفراط ولا تفريط فقد وزن بميزانه وهذا هو حقيقة التجويد كما قيل :

زن الحرف لا تخرجه عن حد وزنه   فوزن حرف الذكر من أفضل السير

قال ابن الجزرى :

ولا أعلم لبلوغ النهاية فى التجويد مثل رياضة الألسنة والتكرار على اللفظ المتلقى من فم المحسن كما قال فى جزريته :

وليس بينه وبين تركه   إلا رياضة امرئ بفكه

وقاعدته ترجع إلى كيفية الوقوف[١] ، والإمالة[٢] ، والإدغام[٣] ، وأحكام الهمز[٤] ، والترقيق ، والتفخيم ، ومخارج الحروف .

(١٦) تعليم القرآن فى الصدر الأول :

وأهل الصدر ما كانوا يقرءون القرآن ولا يعلمونه الأطفال إلَّا مُرَتَّلاً مجوداً ، حتى لا يخرج الصبى من المكتب إلا على رياضة تامة ومعرفة بتلاوة القرآن وترتيله ، لا ينقصه إلا معرفة الأحكام والاصطلاحات الفنية التى يسمونها الآن علم التجويد ، بل كانو يعلمون أولادهم بالمكتب غريب القرآن وشيئاً من أخلاقه وما جاء متضمناً لذلك من أشعار العرب ، وجملة من عقائد الدين وأحكام الفقه الواردة فى القرآن وشيئًا من أحاديث الأخلاق النبوية وتعظيم الأنبياء والرسل ومن اقتفى أثرهم من صالح الأمة حتى يتخرج التلميذ من المكتب حافظاً للقرآن الكريم مجوداً له عالماً بجملة صالحة من اللغة والحديث والشعر وعقائد التوحيد والفقه بحيث لو اقتصر على هذا القدر لكفاه فى أمر دينه ودنياه.

---

(١) وكذا الابتداء .

(٢) وتسمى البطح والإضجاع وهى قسمان : كبرى وصغرى .

(٣) وهو الإدخال .

(٤) من نقل وتسهيل وحذف وإبدال ... إلخ .

وهكذا كان شأن كثير من السلف الصالح فى تعليم أولادهم كتاب الله تعالى ولو سلكنا طريقتهم واهتدينا بهديهم فى تعليم أولادنا لما وصلنا بهم إلى هذا الشر المستطير :

وكل خير فى اتباع من سلف وكل شر فى ابتداع من خلف

ومعلموا القرآن اليوم يجعلون للتجويد دوراً يلى دور تعليم القرآن وتحفيظه، ويتسامحون مع الأطفال فى دور التحفيظ ، حتى يتعودوا النطق بالقرآن محرفاً ناقصاً غير مرتل ولا مجود ، فتجمد مقاطعهم على هذا اللحن وتتعسر رياضتهم بعد ، ولا يخلوا فعلهم هذا من الإثم.

****

(١٧) أول من جمع الأولاد بالمكتب سيدنا عمر رضي الله عنه :

وقد رغب الشارع فى تعليم أولاد المسلمين كتاب الله تعالى ، ورتب عليه الخير العميم ، فقد ورد أن تعليم القرآن يطفىء غضب الرب ، أى عن الأولاد وعن آبائهم وعن كل من تسبب فى تعليمهم .

وأول من جمع الأولاد فى المكتب عمر بن الخطاب ، وأمر عامر بن عبد الله الخزاعى أن يلازمهم للتعليم ، وجعل رزقه من بيت المال وأمره أن يكتب للبليد فى اللوح ويلقن الفهيم من غير كَتْبٍ ، وسألوه تخفيف التعليم فأمر المعلم بالجلوس بعد صلاة الصبح إلى الضحى العالى ومن صلاة الظهر إلى صلاة العصر ويستريحون بقية النهار .

ولما خرج رضي الله عنه إلى الشام عام فتحها ومكث شهراً ثم رجع إلى المدينة وقد استوحش الناس منه فخرجوا للقائه ، تلقاه الصغار على مسيرة يوم وكان ذلك يوم الخميس فباتوا معه ، ورجع بهم يوم الجمعة فتعبوا فى خروجهم ورجوعهم فشرع لهم الاستراحة فى اليومين المذكورين .

فصار ذلك سنة متبعة ودعا بالخير لمن أحيا هذه السنة .

انظر الفواكه الدوانى على رسالة ابن زيد القيروانى .

(١٨) بدعة الجمع فى القراءات :

و أهل الصدر الأول ما كانوا يعرفون طريقة الجمع الذى عليه الناس اليوم بل كانوا يأخذون بإفراد القراءات دون جمعها .

وفى الإتقان[١] للجلال السيوطى :

الذى كان عليه السلف أخذ كل ختمة[٢] برواية لا يجمعون رواية إلى غيرها ، إلى انتهاء السنة الخامسة فظهر جمع القراءات فى الختمة الواحدة واستقر عليه العمل ، ولم يكونوا يسمحون به إلا لمن أفرد القراءات وأتقن طرقها وقرأ لكل قارئ ختمة على حدة ، بل إذا كان للشيخ راويان قرأ لكل راو بختمة ثم يجمعون له وهكذا وتساهل قوم فسمحوا أن يقرأ لكل قارئ من السبعة بختمة سوى نافع وحمزة فإنهم كانوا يأخذون ختمة لقالون ثم ختمة لورش ثم ختمة لخلف ثم ختمة لخلاد ، ولا يسمح أحد بالجمع إلا بعد ذلك إذا رأو شخصاً أفرد وجمع على شيخ معتبر وأجيز وتأهل وأراد أن يجمع القراءات فى ختمة لا يكلفونه الإفراد لوصوله إلى حد المعرفة والإتقان أهـ .

---

(١) الاتقان (١ / ٢٧٠) .

(٢) قال ابن الجزرى رحمه الله :

وقد جرى من عادة الأئمة   إفراد كل قارئ بختمة

وقوله ثم يجمعون له وهكذا أى : فيقرءون للشيخ الواحد إذا كان له راويان ثلاث ختمات ختمتين لكل رواية وختمة للشيخ بجمع الروايتين وهكذا إلى آخر الأئمة السبعة ثم يجمعون .

واشتهر أن القراءة [1] تُعْزىَ للشيوخ الأئمة كنافع وحمزة وعاصم والكسائى وأبوعمرو وابن عامر وابن كثير .

والرواية لمن روى عنهم كقالون وورش لنافع وخلف وخلاد لحمزة .

والطريقة لمن روى عن رواتهم .

وقوله : تساهل قوم إلخ أى فيقرءون خمس ختمات للأئمة الخمسة وست ختمات لنافع وحمزة أو أربعة بحذف قراءة الجمع بين الروايتين والاكتفاء بجمع القراءات السبع وقوله : أن يجمع القراءات إلخ .

---

(١) وهى كما حددها الإمام ابن الجزرى بقوله :

فجمعنا نختاره بالوقف وغيرنا يأخذه بالحرف

بشرطه فليرع وقفا وابتدا ولا يركب وليجد حسن الأدا

فالماهر الذى إذا ما وقفا يبدا بوجه من عليه وقفا

وهى كما ترى : القراءة بالوقف والحرف والمهارة .

أى : يعيد جمعها على شيخه الأول أو على شيخ آخر فيكتفى بالإفراد فى الختمة الأولى ولا يكلف فى الإعادة بإفراد آخر لوصوله إلى حد المعرفة والإتقان .

وظاهره أن ذلك كله حال التعلم والتلقى عن الشيوخ لا حال التلاوة فى المحافل أو غيرها ، فإن ذلك لم يكن لا فى الصدر الأول ولا أثناء القرن الخامس ولا يصح قياس التلاوة على التعليم ؛ لأن المتعلم بين يدى أستاذه فجمعه مأمون من الغلط والتلبيس ، والتلاوة ليست كذلك ، ومقام التعليم يغتفر فيه ما لا يغتفر فى غيره ألا ترى أنهم جوزوا إطلاق أسماء وصفات فى مقام التعليم لا يجوز إطلاقها فى غيره ، على أن جمع المتأخرين حال التلقى عن الوجه المذكور لا يسوغ الجمع الذى عليه الناس اليوم [1] لا حال التلقى ولا حال التلاوة لأنه لم يسبق لهم حال الأخذ عن الشيوخ إفراد القراءة ولا إتقان طرقها على الوجه الذى استقر عليه العمل أثناء القرن الخامس ، حتى يسوغ لهم الجمع المذكور بل الواحد منهم حال التلقى يفرد القراءة فى جزء يسير من القرآن كسورة الفاتحة والبقرة أو أقل من ذلك ثم يتلقى بقية الختمة بالجمع قصراً لمسافة التعليم .

---

(١) وطريقة الجمع المعتبرة عند الأداء :

تكون بتقديم أقرب مذكور إلى رأس الآية .

ولا شك أن ذلك لا يؤمن معه الغلط والتخليط ولا يصل به القارئ إلى حد المعرفة والإتقان وبالجملة فالجمع فى التلاوة بدعة غير معروفة لا عند السلف ولا عند الخلف .

كما أن الجمع الذى عليه الناس اليوم حال التلقى غير كاف فى ضبط القراءات على وجه يصل به القارئ إلى الحد الذى يأمن معه من الغلط والتخليط [١] وإن كفى لذوى العناية والضبط لا يكفى لغيرهم وهم أكثر حملة القرآن اليوم .

وإذا قيل إن الهمم قد قصرت عن تلقى القراءات على هذا الوجه وتحملها فرض كفاية ليس بلازم فى القيام به أن يتحمل كل واحد مجموع القراءات بل يصح أن يقوم البعض بتحمل رواية أو روايتين وبعض آخر كذلك فإن أكثر أهل مصر اشتهروا بقراءة حفص [٢] وأهل المغرب بقراءة ورش [٣] ومجموعهما كاف فى تحمل فرض الكفاية فى هاتين الروايتين وبالجملة فبدعة الجمع مطلقاً لا تخلو عن غضاضته خصوصاً إذا لوحظ أن كيفية الإفراد كترتيب الكلمات والسور والآيات سنة متبعة .

---

(١) أى : بين القراء والرواة سواء وقع الخلط فى الأصول أو الفرش عند التلقى والأداء .

(٢) الرواى عن عاصم .

(٣) الرواى عن نافع .

(١٩) التلقى عن الشيوخ

وقد جرت السنة فى الأخذ عن الشيوخ كما ذكره فى المصابيح ، أن يقرأ الأستاذ ويسمع التلميذ ، ثم يقرأ التلميذ ؛ لأن رسول الله ﷺ قال لأبى بن كعب رضي الله عنه : ((إن الله أمرنى أن أقرأ عليك القرآن))(١) .

وروى عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ((إن الله يحب أن يُقْرَأَ القرآن كما أنزل))(٢) أخرجه بن خزيمة فى صحيحة .

والحكمة فى أمره ﷺ بالقراءة على أبىٍّ تعليمه وإرشاده إلى ألفاظه وصفة أدائه ومواضع الوقوف وصيغ النغم ، فإن نغم القرآن أَلِفَهُ الشرع وقدَّره بخلاف ما سواه من النغم المستعمل فى غيره ، ولكل ضرب(٣) من النغم أثر مخصوص فى النفوس فكانت القراءة عليه لِيُعلِّمه لا ليتعلم منه .

وفى الحديث :

((اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل الكتابين))(٤).

---

(١) صحيح :أخرجه البخارى (٤٦٧٦) .

(٢) ضعيف : أخرجه السجزى فى الإبانة [ضعيف الجامع (١٧١٩)] .

(٣) أى نوع .

(٤) ضعيف : أخرجه الطبرانى فى الأوسط [ضعيف الجامع (١٠٦٧)] .

وقيل : قرأ عليه ليبين عرض القرآن على حفاظه البارعين فيه المجيدين لأدائه وليبين قدر التواضع فى أخذ الإنسان القرآن وغيره من العلوم الشرعية من أهلها وإن كانوا دونه فى النسب والدين والفضيلة والمرتبة والشهرة ولينبه الناس على فضيلة أبى فى ذلك ويحثهم على الأخذ عنه وتقديمه فى ذلك .

وقد كان أُبَىّ بعد النبى ﷺ رأساً وإماماً مقصوداً فى ذلك مشهوراً وهو أول قراء الصحابة وأشدهم استعداداً لتلقف القرآن منه ﷺ كتلقفه عليه الصلاة والسلام من أمين الوحى فلذا خص بهذه المنحة .

(٢٠) أركان القراءة :

وفى كتاب النشر للإمام ابن الجزرى كما نقله صاحب الإتقان أن :

القراءة التى تعد قراءة هى ما وافقت العربية ولو بوجه ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً وصح[1] سندها ، فهى القراءة الصحيحة التى لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها ، بل هى من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ووجب على الناس قبولها سواء كانت عن الأئمة السبعة أو العشرة أو عن غيرهم

---

(١) قال ابن الجزرى رحمه الله :

فكل ما وافق وجه نحو ... وكان للرسم احتمالاً يحوى

وصحَّ إسناداً هو القرآن ... فهذه الثلاثة الأركان

من الأئمة المقبولين ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة سواء كانت عن السبعة أو عمن هو أكثر منهم هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف صرح بذلك الدانى ومكى والمهدوى وأبو شامة وهو مذهب السلف الذى لا يعرف عن أحد منهم خلافه .

قال أبو شامة فى المرشد الوجيز :

لا ينبغى أن يغتر بكل قراءة تُعْزَىَ [١] إلى أحد السبعة ويطلق عليها لفظ الصحة وأنها أنزلت هكذا إلا إذا أدخلت فى ذلك الضابط وحينئذ لا ينفرد بنقلها مصنف عن غيره ولا يختص ذلك بنقلها عنه بل إن نقلت عن غيرهم من القراء فذلك لا يخرجها عن الصحة فإن الاعتماد على استجماع تلك الأوصاف لا على من تنسب إليه فإن القراءة المنسوبة إلى كل قارئ من السبعة وغيرهم منقسمة إلى المجمع عليه والشاذ غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة الصحيح المجمع عليه فى قراءتهم تركن النفس إلى ما نقل عنهم فوق ما ينقل عن غيرهم [٢] أهـ.

ثم قال ابن الجزرى :

فقولنا : فى الضابط - ولو بوجه - نريد به وجهاً من وجوه النحو سواء أكان أفصح أم فصيحاً مجمعاً عليه أم مختلفًا فيه اختلافاً لا يضر مثله إذا كانت

---

(١) أى تنسب .

(٢) الاتقان (١ / ٢٠٣ ، ٢٠٤) .

القراءة مما شاع وذاع وتلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح إذ هو الأصل الأعظم والركن الأقوم وكم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو أو كثير منهم ولم يعتبر إنكارهم كإسكان (بارئكم ويأمركم) وخفض ﴿ الأرحام ﴾ والفصل بين المضافين فى مثل (قتلُ أولادَهم شركائِهم [1]) فإذا ثبتت الرواية لم يردها قياس عربية ولا فشوًّا لغة لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها .

قال : ونعنى بموافقة أحد المصاحف ما كان ثابتاً فى بعضها دون بعض كقراءة ابن عامر ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ ﴾ (الكهف: ٤) فى البقرة من غير واو وبالزبر ﴿ والكتاب المنير ﴾ بزيادة الباء فى الاسمين فإن ذلك ثابت فى المصحف الشامى ، فإن لم يكن فى شيء من المصاحف العثمانية فشاذ لمخالفته الرسم المجمع عليه.

وقولنا :

واحتمالاً تعنى به ما وافقه ولو تقديراً لحذفها فى الخط اختصاراً .

---

(١) أى فى قراءة ابن عامر رحمه الله .

وقد يوافق اختلاف القراءات الرسم تحقيقاً نحو: ﴿ تعلمون ﴾ بالتاء والياء ﴿ ويغفر لكم ﴾ بالياء والنون ونحو ذلك مما يدل تجرده عن النقط[1] والشكل فى حذفه وإثباته على فضل عظم الصحابة فى علم الهجاء خاصة وفهم ثاقب فى تحقيق كل علم .

وانظر كيف كتبوا ﴿ الصراط ﴾ بالصاد المبدلة من السين وعدلوا عن السين التى هى الأصل لتكون قراءة السين وإن خالفت الرسم من وجه قد أتت على الأصل فيعتدلان وتكون قراءة محتملة ولو كتب ذلك بالسين على الأصل لفات ذلك ، وعدت قراءة غير السين مخالفة للرسم والأصل .

ولذلك اختلفت فى ﴿ بسطة ﴾ الأعراف[2] دون ﴿ بسطة ﴾ البقرة[3] لكون حرف البقرة كتب بالسين والأعراف بالصاد على مخالف صريح الرسم فى حرف مدغم أو مبدل أو ثابت أو محذوف أو نحو ذلك لا يعد مخالفاً إذا أثبتت

---

(١) وهو نقط الإعجام والإهمال .

(٢) فى قوله تعالى :

﴿ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ (الأعراف: ٦٩) وفيها السين والصاد .

(٣) فى قوله تعالى :

﴿ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ (البقرة: ٢٤٧) ففيه السين مطلقاً .

القراءة به ووردت مشهورة مستفاضة كقراءة السوسى فى نحو : ﴿ يغفر لكـم ﴾ بإبدال الراء لاماً أو إدغامها فى اللام مع أن الرسـم فى المـصاحف العثمانيـة كلهـا بالراء .

ولذا لم يعدوا إثبات ياءات الزوائد ، وحـذف يـاء ﴿ تـسألنى ﴾ فى الكهـف وواو ﴿ وأكون من الصالحين ﴾ ونحوه من مخالفة الرسم المردودة فإن الخلاف فى ذلك مغتفر ، إذ هو قريب يرجع إلى معنى واحد ، وتمشيه صحة القراءة وشـهرتها وتلقيها بالقبول ، بخلاف زيادة كلمة ونقصانها وتقديمها وتأخيرها .

قال : وقولنا وصـح إسـنادها نعنـى بـه أن يـروى تلـك القـراءات العـدل الضابط عن مثلة وهكذا حتى ينتهى إلى رسول الله ﷺ .

وتكون مع ذلك مشهورة عند أئمة هـذا الـشأن غـير معـدودة عنـدهم مـن الغلط أو مما شذ بها بعضهم .

وقال : وقد شرط بعض المتأخرين التواتر فى هذا الركن ، ولم يكتف بـصحة السند ، وزعم أن القراءة لا تثبت إلا بالتواتر ، وأن ما جاء مجيء الآحـاد لا يثبـت به قرآن .

قال : وهذا مما لا يخفى ما فيه فإن التواتر إذا ثبت لا يحتـاج فيـه إلى الـركنين الآخرين من الرسم وغيره ، إذا ما ثبت مـن أحـرف الخـلاف متـواترا عـن النبـى

ﷺ وجب قبوله ، وقطع بكونه قرآناً سواء وافق الرسم أم لا ، وإذا شرطنا التواتر فى كل حرف من حروف الخلاف انتفى كثير من أحرف الخلاف الثابت عن السبعة .

وقال الجعبرى :

الشرط واحد وهو صحة النقل ، ويلزم الآخرون فمن أحكم معرفة حال النقلة وأمعن فى العربيه وأتقن الرسم انحلت له هذه الشبهة ، وعرف أن المعول عليه صحة الإسناد والشهرة ، يعنى وعند ذلك لا بد أن يوافق الرسم والعربية بالمعنى الذى قرره ابن الجزرى [1] وغيره .

****

(١) كما أشرنا سابقاً فى أركان القراءة الصحيحة وهى ثلاثة :

أ – موافقة العربية .

ب – صحة السند .

ج – احتمال الرسم .

(٢١) أنواع القراءات أربعة :

والحاصل أن أنواع القراءات أربعة :

(الأول) : المتواتر : وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم إلى منتهاه وغالب القراءات كذلك .

(الثانى) : المشهور : وهو ما صح سنده ولم يبلغ درجة التواتر ووافق العربية والرسم واشتهر عند القراء ولم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ يقرأ به على ما ذكره ابن الجزرى وأبو شامة .

(الثالث) : الآحاد : وهو ما صح سنده وخالف الرسم أو العربية ولم يشتهر الاشتهار المذكور وهذا لا يقرأ به كراوية : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفَافٍ خُضْرٍ وَعَبَاقِرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ (الرحمن: ٧٦) .

(الرابع) : الشاذ :[١] وهو ما لم يصح سنده وفيه كتب مؤلفة ، من ذلك قراءة ﴿ مَلَكَ يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ (الفاتحة: ٤) بصيغة الماضى ونصب ﴿ يَوْمَ ﴾ انظر الإتقان .

---

(١) وهو ما اختل فيه ركن أو ركنان من أركان القراءة الثلاثة على ما ذكرنا سابقاً .

ولعل المراد بالنوع الثانى المشهور بالمعنى الذى ذكره أنه فى رتبة المتواتر المفيد للقطع فإن القرآنية لا تثبت على الصحيح إلا بقاطع .

(٢٢) : الخلاف فى ثبوت القرآنية بغير الآحاد المحتفِّ بالقرائن :

وذهب بعض فقهاء الشافعية وغيرهم إلى ثبوت القرآنية بخبر الواحد إذا احتفَّ بالقرائن ، وجعلوا ذلك فى حكم المتواتر ومنه البسملة فى أوائل السور وبعضهم خصه بها .

فقد قال الشيخ بهاء الدين بن عقيل :

الذى يظهر أن إثباتها قرآناً لا يكون إلا بقاطع كغيرها ، ويجوز كونه خبر الآحاد الذى احتفت به القرائن ، وهو إجماعهم على كتابتها فى المصاحف كلها بقلم القرآن وعدم تكفير فيها ؛ لكون القطع ناشئاً عن ثبوت الخبر المحفوف بالقرائن وهذا لم يحصل للنافى أهـ .

وقال ابن الحاجب وغيره :

إن الشبهة الحاصلة من دليل كل طائفة قوية عند الأخرى ومثل ذلك يمنع التكفير ، والحاصل أن القرآنية الحقيقية لا تثبت بخبر الواحد إلا إذا احتفت بالقرائن الموجبة للقطع .

وهل هذا الطريق خاص بالبسملة أو يعمُّ غيرها من أحرف القرآن ؟

وقد توفر في البسملة عدة قرائن لا يوجد مجموعًا في غيرها مما نقل آحاداً منها : تواتر نقلها تلاوة ، وفصلاً بين السور وإن لم يكن على الجزم بأنها قرآن أو غير قرآن .

ومنها : الإجماع على أن ما بين دفتي المصحف كلام الله تعالى والبسملة بين دفتيه بخط السور .

ومنها أن الآحاد كما دلت على قرآنيتها دلت على إثبات أحكام القرآن لها .

كما صح أنه عليه الصلاة والسلام أمر بقراءة الفاتحة في الصلاة وعدها سبع آيات وعد ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ آية [1] منها ، بخلاف ما نقل آحاداً من غيرها ، فإنه وإن دلت الآحاد على قرآنيته لم تدل على ثبوت أحكام القرآن له ، بمعنى أنها لم تتعرض لذلك وبعضهم أثبت قرآنية البسملة بتواتر كتابتها بخط المصحف إذ لا يكتب كذلك إلا ما كان قرآناً .

وبالإجماع على أن مابين دفتي المصحف كلام الله تعالى ، وهذا قريب مما قبله، فإن ما اعتبر قرينة لخبر الآحاد على الأول اعتبر دليلاً عند هذا القائل وكلاهما بمثابة التواتر الصريح في إفادة القطع ، وانظر هل ذلك يستلزم الشهرة

---

(١) عند جمهور القراء .

فيكون من النوع الثانى المتقدم أولا يستلزم فلا تكون شرطاً فى إثبات القرآنية التى يجوز القراءة بها ؟

وذهب جمهور الشافعية كما نقله صاحب الإتقان إلى أن :

البسملة قرآن[1] حكماً لا قطعاً ورجحه النووى فى شرح التهذيب ومعنى كون قرآنيتها حكماً كما قال النووى أنه لا تصح الصلاة إلا بها أول الفاتحة .

وفى كتاب الانتصار للقاضى أبى بكر ما نصه :

وقال قوم من الفقهاء والمتكلمين : يجوز إثبات ((قرآنٍ وقراءةٍ)) حكماً لا علما بخبر الواحد دون الاستفاضة وكره أهل الحق ذلك وامتنعوا منه أهـ .

أى : لأن خبر الواحد لا يفيد إلا الظن والقرآن لا يكون إلا مقطوعاً به ولذلك شرط بعضهم فيه أن يكون محفوفاً بالقرائن الموجبة للقطع وقد توفر ذلك فى البسملة كما تقدم .

---

(١) كما أنها بعض آيه فى سورة النمل فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾ (النمل: ٣٠) .

ومذهب المالكية والمتقدمين من الحنفية كما حكاه عنهم صاحب الإتقان يخص :

ثبوت القرآنية بطريق التواتر نظراً إلى أن هذا الطريق هو الطريق العام للقرآن المعجز الذى تتوفر الدواعى على نقله تواتراً والبسملة فى أوائل السور لم يتواتر نقلها على أنها قرآن وإن تواتر نقلها تلاوة وفصلاً بين السور وكتابته بخطها، فإن ذلك لا يثبت القرآنية فيما تتوفر الدواعى على نقله تواتراً بهذا الطريق قطعنا بأن غيرها مما لم يذكر فى القرآن ليس منه ، والبسملة فى أوائل السور إنما نزلت للفصل [1] .

كما روى ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى تنزل عليه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [2] فهى بين السور من كلام الله تعالى ، ولكنها ليست من القرآن ، ولكونها من كلامه تعالى كان تواتر كتابتها بخط المصحف والإجماع على أن ما بين دفتيه من كلام الله تعالى لا يثبت قرآنيتها عند المالكية .

---

(١) يقصد الفصل بين السور وكان ﷺ لا يعلم انتهاء سورة من ابتداء أخرى إلا بالبسملة .

(٢) صحيح : رواه أبوداود [انظر صحيح سن أبى داود (٧٨٨)] .

والحاصل أن المذاهب فى البسملة أربعة :

(أولاً) : قيل : أنها من القرآن آية من كل سورة ماعدا براءة وهو مذهب الشافعية واستدلوا على قرآنيتها بتواتر نقلها كتابة بخط السور .

(ثانياً) : وقيل : وبالإجماع المروىّ على كونها جزءاً من الفاتحة دون غيرها وهو مذهب الحنابلة .

(ثالثاً) : وقيل : أنها آية مستقلة ليست جزءاً من الفاتحة ولا من غيرها وهو مذهب المتأخرين من الحنفية .

(رابعاً) : وقيل : إنها ليست آية أصلاً لا مستقلة ولا جزءاً وهو المشهور من مذهب مالك ومتقدمى الحنفية وأدلة كل مبسوطة فى محلها .

****

(٢٣) تواتر القراءات :

والحق أن القرآن بجميع حروفه السبعة وقراءاته المعروفة للقراء السبعة أبى عمرو ونافع وابن كثير وعامر وعاصم وحمزة والكسائى متواترة كما ذكره عمدة القراء والمحدثين الشمس ابن الجزرى.

واختلف فى تواتر ما وراء السبعة من قراءة يعقوب وأبى جعفر وخلف [1] والصحيح أنها متواترة بل هى شاذة لا يجوز القراءة بها وأنكره أئمة القراء أشد إنكار حتى قال الشيخ أبو حيان : لا نعلم أحداً من المسلمين حضر القراءة بالثلاث الزائدة على السبع كما ذكره الكمال وغيره.

وفى الإتقان للسيوطى :

القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان [2] .

فالقرآن هو :

الوحى المنزل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز.

---

(١) وهو خلف العاشر ويطلق عليه خلف البزار فى اختياره وقد روى عنه إسحاق وإدريس.

(٢) انظر : إعجاز القراءات القرآنية ، صبرى الأشوح من ص ١٤ وما بعدها ، ط مكتبة هبة.

والقراءات:

اختلاف ألفاظ الوحى المذكور فى كتابة الحروف أو كيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرهما [١] أهـ .

والمراد بتغاير الحقيقتين تغاير مفهوم الفرد ومفهوم الحقيقة الكلية التى لا توجد إلا فى ضمنه فإن القرآن لا يتحقق إلا فى رواياته المشهورة التى نزل عليها فى أحرفه السبعة .

****

---

(١) انظر الإتقان (١/ ٢١٤) ، والبرهان للزركشى (١ / ٣١٨) وهذا القول للزركشى فى البرهان ونقله السيوطى عنه فى الإتقان .

الفصل الثالث

في جمع القرآن
وكتابته بالخط العثماني

فى جمع القرآن وكتابته بالخط العثماني

كان ﷺ له حالة خاصة فى تلقى الوحى القرآنى والاهتمام بشأنه تبليغاً وتبييناً وحفظاً وتحفيظاً وكتابة فكان كلما نزل عليه جملة من القرآن اهتم بشأنها وسارع إلى حفظها والتثبت منها وتبليغ قرآنيتها وأمر بكتابتها ورغب فى حفظها وبين ما يحتاج إلى البيان منها .

فقد أخرج البخارى ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنه قال :

كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن يتفلَّت منه يريد أن يحفظه فأنزل الله تعالى : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ (القيامة: ١٦).

أى عند إلقاء الوحى من قبل أن يقضى إليه وحيه ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ (القيامة: ١٧) فى صدرك بحيث لا يذهب عليك شيء من معانيه أى : إثبات قراءته فى لسانك ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ (القيامة: ١٨) أى أتممنا قرآءته عليك بلسان جبريل عليه السلام بذهنك وفكرك فاستمع وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ (القيامة: ١٩) .

فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق واستمع[١] فإذا ذهب قرأه كما وعد الله ﷻ[٢].

(٢٥) دراسة القرآن وكتابته فى عهده ﷺ :

وقد عنى ﷺ بدراسة القرآن ، وأمر بكتابته ، ونهى عن كتابة السنة فى بادئ الأمر ، ميزة له وزيادة فى التثبت والحفظ[٣] ، وخشية من الالتباس والضياع، وعناية بالنظم المتعبد بتلاوته .

وأخرج ابن أبى حاتم من طريق عقيل عن الزهرى سئل عن الوحى فقال : الوحى ما يوحى الله إلى نبى من الأنبياء ، فيثبته فى قلبه فيتكلم به ، ويكتبه ، وهو كلام الله ، ومنه مالا يتكلم به ولا يكتبه لأحد ولا يأمر بكتابته ولكنه يحدث به الناس حديثًا ويبين لهم أن الله أمره أن يبينه للناس ويبلغهم إياه .

---

(١) وهو المسمَّى بـ (العرضة) .

(٢) صحيح : رواه البخارى (٥) ، ومسلم (٤٤٨) .

(٣) والمقصود من كتابة القرآن وكذا من معارضة الرسول ﷺ مرة كل عام ومرتين فى العام الأخير المبالغة فى الاحتياط لألفاظ القرآن وزيادة الاستيثاق من حفظها وضبطها لتكون فى مأمن من الضياع .انظر : تاريخ المصحف الشريف العلامة الشيخ عبدالفتاح القاضى (ص ٩) ط المطابع الأميرية .

وأخرج مسلم من حديث أبى سعيد قال قال رسول الله ﷺ: «لا تكتبوا عنى شيئاً غير القرآن»[1] فكان الصحابة يكتبون ما يسمعون من فم رسول الله ﷺ من القرآن فى الصحاف والرقاع مخافة النسيان والضياع .

وقال الحارث المحاسبى :

كتابة القرآن ليست بمحدثة فإنه ﷺ كان يأمر بكتابته .

ولكن كان مفرقاً فى الرقاع والأكتاف والعُسْبِ وإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعاً وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت فى بيت رسول الله ﷺ فيها القرآن منتشر فجمعها جامع وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء .

وكان النبى ﷺ كل سنة فى رمضان يعرض ما معه من القرآن على جبريل عليه السلام وكلما زاده حرفاً من الأحرف السبعة أو نسخ منه شيئاً بادر إلى حفظ ذلك والعمل بمقتضاه والأمر بكتابته .

---

(١) صحيح : رواه مسلم (٣٠٠٤) .

قال الخطابى :

وإنما لم يجمع ﷺ القرآن فى المصحف لما كان يرتقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته فلما انقضى [1] نزوله بوفاته ﷺ ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة وكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر رضي الله عنه .

(٢٦) كتابة القرآن توقيفية :

فالقرآن كتب كله فى عهد رسول الله ﷺ ولكن غير مجموع فى موضع واحد ولا مرتب السور كما فى الإتقان وغيره ، وكان ﷺ هو الذى يملى زيد بن ثابت من تلقين جبريل عليه السلام كما يشهد بذلك إطباق القراء على قوله ﴿ وَٱخۡشَوۡنِي ﴾ فى (البقرة : ١٥٠) بإثبات الياء ، وفى المائدة بحذفها فى الموضعين ونظائر ذلك كثيرة مما يدل على أن هجاء القرآن وكتابته بالتوقيف وأنه ليس من الرسم الموضوع.

---

(١) كان القرآن لكريم كله مكتوبًا فى العهد النبوى ولكنه لم يكن مجموعاً فى مصحف واحد ولا مرتب السور بل كان مفرقًا فى العسب والرقاع وصدرو الصحابة لكثرة ملازمتهم له ﷺ بتفاوت فيها بينهم .

انظر : المرجع السابق ص ١١ .

ويشهد لذلك أيضاً ما ذكره العلامة الشيخ أحمد بن المبارك فى كتاب : (الذهب الإبريز) عن شيخه الشيخ عبد العزيز الدباغ أنه قال : رسم القرآن سر من أسرار المشاهدة وكمال الرفعة قال سيدى أحمد قلت له :

هل رسم الواو بدلاً من الألف فى نحو :

﴿ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ و﴿ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ و﴿ ٱلْحَيَوٰةَ ﴾ و﴿ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ وزيادة الواو فى :﴿ سأوريكم ﴾ و﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ و﴿ أولاءِى ﴾ .

والياء فى :﴿ هديهم ﴾ و﴿ ملأيه ﴾و﴿ بأييكم ﴾و﴿ بأييد ﴾ .

هذا كله صادر عن النبى ﷺ وهو الذى أمر الكتاب من الصحابة أن يكتبوه على هذه الهيئة فما نقصوا ولا زادوا على ما سمعوا من النبى ﷺ .

فقلت له إن جماعة من العلماء ترخصوا فى أمر الرسم ، وقالوا إنما هو اصطلاح من الصحابة مشوا فيه على ما كانت قريش تكتب عليه فى الجاهلية .

فقال :ما للصحابة ولا غيرهم فى رسم القرآن ولا شعرة واحدة ، وإنما هو توقيف [١] من النبى ﷺ وهو الذى أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها لأسرار لا تهتدى إليها العقول .

وهو سر من الأسرار خص الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية فلا يوجد شيء من هذا الرسم لا فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى غيرها من الكتب السماوية ، فكما أن نظم القرآن معجز فرسمه معجز أيضاً .

---

(١) قال أبوالعباس : زيدت الواو للدلالة على ظهور معنى الكلمة فى الوجود فى أعظم رتبة فى العيان مثل :

﴿ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ (الأعراف: ١٤٥) .

﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾ (الأنبياء: ٣٧) .

انظر : (كيف نتأدب مع المصحف) لمحمد رجب الفرجانى ، ط دار الاعتصام ص ٦٨ وما بعدها .

وكيف تهتدى العقول إلى سر زيادة الألف فى فئة دون فئة وإلى سر زيادة الياء فى ﴿ بأييد ﴾ [١] و﴿ بأييكم ﴾ أم كيف تتوصل إلى سر زيادة الألف فى ﴿ سعوا ﴾ بالحج ونقصانها فى ﴿ سعو ﴾ بسبأ ، وإلى سر زيادتها فى ﴿ عتوا ﴾ حيث كان ونقصانها من ﴿ عتو ﴾ بالفرقان ، وإلى سر زيادتها فى ﴿ يعفوا ﴾ الذى ونقصانها فى ﴿ يعفو ﴾ عنهم بالنساء .

وإلى سر زيادتها فى ﴿ آمنوا ﴾ وإسقاطهم من باب واو جاءوا و﴿ تبوءوا ﴾ و﴿ فاءوا ﴾ بالبقرة ، أم كيف تبلغ العقول إلى وجه حذف بعض أحرف من كلمات متشابهة دون بعض كحذف الألف من ﴿ قرآنا ﴾ بيوسف والزخرف وإثباتها فى سائر المواضع وإثبات الألف بعد واو ﴿ سماوات ﴾ فى فصلت [٢] وحذفها من غيرها .

---

(١) قال أبو العباس : إنما كتبت ﴿ بأييد ﴾ بياءين فرقاً بين (الأيد) الذى هو القوة وبين (الأيدى) جمع يد ، ولا شك أن القوة التى بنى الله بها السماء هى أحق بالثبوت فى الوجود فزيدت للاختصاص ، وكذا فى ﴿ بأييكم ﴾ تخصيصًا لهم بالصفة لحصول ذلك وتحققه فى الوجود . انظر : المرجع السابق ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) فصلت الآية (١٢) .

وإثبات الألف فى ﴿ الميعاد ﴾ وحذفها من موضع الأنفال [1]، وإثبات الألف فى ﴿ سراجا ﴾ حيث وقع وحذفها من موضع الفرقان [2]، وكيف تتوصل إلى فتح بعض التاءات وربطها فى بعض، فكل ذلك لأسرار إلهية وأغراض نبوية، إنما خفيت على الناس لأنها أسرار باطنية لا تدرك إلا بالفتح الربَّانى، فهى بمنزلة الألفاظ والحروف المتقطعة التى فى أوائل السور، فإن لها أسراراً عظيمة ومعانى كثيرة وأكثر الناس لا يهتدون إلى أسرارها، ولا يدركون شيئاً من المعانى الإلهية التى أشير، إليها فكذلك أمر الرسم الذى فى القرآن حرفاً بحرف، هذا هو الذى ينبغى التعويل عليه فى رسم القرآن الكريم .

(٢٧) أميَّة النبى ﷺ :

ولا ينافيه ما قيل أن النبى ﷺ كان أمِّيًّا لم يتعلم القراءة ولا الكتابة لأن الإملاء بالتلقين على هذا النحو لا يستلزم تعلم الكتابة بالمعنى الذى نفى عنه ﷺ فإن :

(الأول): إيحاء وإعلام محض بهجاء الكتابة ورقومها بدون تعلم وكسب .

(١) الآية (٤٢) .

(٢) الآية (٦١) .

(والثانى) : تعلم كسبى وعمل يدوى كما يتعلم أحدنا مبادئ الكتابة ثم يقرأ أويكتب وإنما لم يتعلم ﷺ الكتابة أو يكتب لأن لا يظن أنه مصنف القرآن فيرتاب فى أمره كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (العنكبوت : ٤٨) .

فالكتابة لم تقع منه ﷺ لاعن وحى ولا تعلم ولا عن غريزة ينشأ عنها نظم الكتابة كما ينشأ الشعر عن سليقة العربى ، والصحيح أن هذا كان فى بدء الإسلام أول نزول القرآن .

وأما بعد التحدى به وعجز فصحاء العرب عن الإتيان بمثله فقد قيل أنه ﷺ قرأ وكتب بيده الشريفة .

فقد أخرج أبو الشيخ من طريق مجاهد قال :

حدثنى عون بن عبد الله بن عتبة عن أبيه قال : ما مات النبى ﷺ حتى قرأ وكتب [1] فذكرت هذا الحديث للشعبى فقال : صدق سمعت أصحابنا

---

(١) رواه الطبرانى وقال الهيثمى : حديث منكر [مجمع الزوائد (١٤٠١٧) ، وقال الألبانى: موضوع [السلسة الضعيفة (٣٤٣)] .

يقولون ذلك وكتابته ﷺ لا عن تعلم تعده معجزة له ، كما أن الأمية التى وصف بها فى القرآن تعد من شمائله وإن كانت نقصاً فى حق غيره .

ففى الألوسى[١] :

ووصف عليه الصلاة والسلام بالأمى فى قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ ونحوه تنبيهاً على أن كمال علمه مع حاله إحدى معجزاته فهو بالنسبة إليه صفة مدح وأما بالنسبة إلى غيره فلا ، وذلك كصفة التكبر فإنها صفة مدح لله عز وجل وصفة ذم لغيره أهـ .

وقوله ﷺ : ((إنَّا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب))[٢] إخباراً عن البدء بالنسبة له ﷺ وأن حصول الكتابة منه على هذا الوجه لا ينافى الأمية لأن الإيحاء والتلقين من الله تعالى لا يرفع وصف الأمية التى يقابلها الكسب والتعليم، وأما بالنسبة للصحابة رضي الله عنهم فباعتبار الغالب فإن منهم كتاباً كانوا فى غاية الحذق بصناعة الكتابة[٣] والهجاء .

---

(١) انظر : تفسير روح المعانى – المجلد الساس ، ص ١١٦ ، ط دار الفكر ، وهو العلامة أبو الفضل محمود الألوسى ت ١٢٧ هجرية .

(٢) حديث صحيح : رواه البخارى (١٨١٤) ، ومسلم (١٠٨٠) .

(٣) كالخلفاء الأربعة والصحابى زيد بن ثابت والرهط الذين كانوا معه .

(٢٨) كتّابه ﷺ :

فقد نقل صاحب السيرة الحلبية عن بعضهم أن كتّابه ﷺ للقرآن وغيره من الرسائل كانوا ستة وعشرون كاتباً على ماثبت عن جماعة من ثقات العلماء [١] .

وفى السيرة العراقية أنهم كانوا اثنين وأربعين منهم عبد الله بن سعد العامرى وهو أول من كتب له ﷺ من قريش بمكة ثم ارتد ثم أسلم وحسن إسلامه ودعا الله تعالى أن يختم عمره بالصلاة فمات ساجداً فى صلاة الصبح ومنهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وعامر بن فهيرة رضي الله عنهم .

وعبد الله بن الأرقم كان يكتب له الرسائل للملوك وغيرهم وأبىٌّ بن كعب وهو أول من كتب له ﷺ من الأنصار بالمدينة وثابت بن قيس بن الشماس وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبى سفيان وأخوه يزيد قال بعضهم : كان معاوية

---

(١) ومنهم : عبدالله بن أبى سَرْحٍ والخلفاء الأربعة والزبير بن العوام وخالد وأبَّان ابنا سعيد بن العاص بن أميَّة وحنظلة بن الربيع الأسدى ومعيقب وعبدالله بن الأرقم وشرحبيل بن حسنة وعبدالله بن رواحة غير من كتبوا له من أهل المدينة كأبىٍّ وزيد رضي الله عنهم جميعاً . انظر : تاريخ القرآن ص ١١٠، د / عبدالصبور شاهين .

وزيد بن ثابت رضي الله عنهما ملازمين للكتابة بين يدى رسول الله ﷺ فى الوحى وغيره، ولا عمل لهما غير ذلك .

قال زيد بن ثابت رضي الله عنه : أمرنى رسول الله ﷺ أن أتعلم السريانية قال إنى لا آمن يهود على كتابى فما مر بى نصف شهر حتى تعلمت وحذقت فيه فكنت أكتب له ﷺ وأقرأ له كتابهم [1] .

ومنهم المغيرة بن شعبة والزبير بن العوام وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الله بن رواحة ومحمد بن مسلمة وعبد الله بن عبدالله بن أبىٍّ بن سلول .

وذكر القاضى محمد بن سلامة القضاعى أن عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب رضي الله عنهما كانا يكتبان الوحى لرسول الله ﷺ فإن غاب كتب أبى بن كعب وزيد بن ثابت فإن لم يحضر أحد من هؤلاء الأربعة كتب من حضر من الكتاب وهم معاوية بن أبى سفيان وخالد بن الوليد وسعيد بن العاصوأبّان بن سعيد والعلاء بن الحضرمى وحنظلة بن الربيع وعبد الله بن سعد بن أبى سرح وكان زيد بن ثابت ألزم الصحابة لكتابة الوحى بين يدى رسول الله ﷺ وهو أول من كتب القرآن بيده فى خلافة أبى بكر الصديق .

---

(١) حسن صحيح : أخرجه الترمذى [صحيح سنن الترمذى (٢٧١٥)] .

(٢٩) حفظة القرآن فى عهده ﷺ :

أما الذين حفظوا القرآن فى عهده ﷺ من الصحابة مهاجرين وأنصار فكثير جدًّا .

فمن المهاجرين :

أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة وسعد وابن مسعود وحذيفه وسالم مولى أبى حذيفة وأبى هريرة وابن عمر وابن عباس وعمرو بن العاص وابنه عبد الله ومعاوية وابن الزبيروعبد الله بن السائب وعائشة وحفصة وأم سلمة.

ومن الأنصار :

أبى بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو الدرداء ومجمع بن حارثة وأنس بن مالك وأبو زيد الذى سئل عنه أنس فقال : أحد عمومتى .

وقد جاء فى صفة الصحابة رضي الله عنهم (صدورهم أناجيلهم) لا يحتاجون فى حفظ العلم إلى صحيفة أو كتاب وقد بذلوا أنفسهم فى حفظ القرآن وإتقانه .

وتلقوه من النبى ﷺ حرفاً حرفاً ، لم يهملوا منه حركة ولا سكوناً ولا إثباتاً ولا حذفاً ولا دخل عليهم فى شيء منه شك ولا وهم ، وكان منهم من حفظه كله ومنهم من حفظ أكثره ، ومنهم من حفظ بعضه ، كل ذلك فى زمن النبى ﷺ .

كما أن كتابته فى عهده ﷺ كان بجميع أحرفه وإن لم يكن مجموعاً فى مصحف واحد .

فقد قال صاحب (غنية الطالبين)[١] :

أن القرآن لم يجتمع فى عهد النبى ﷺ فى مصحف واحد ، وإنما كانت الصحابة رضي الله عنهم قبل أن يكثر الورق يكتبون ما نزل من القرآن على العسب والأكتاف والأدم واللخاف والعسب - هى العريض من جريد النخيل واللخاف الأحجار العريضة البيضاء والأكتاف العظام المنبسطة كاللوح والأدم قطع الجلود - ولعل هذه الأشيئًا ء هى التى أطلق عليها اسم المصحف[٢] فى قولهم : (مخلفه سبحتان ومصحف) .

****

وكان دأب الصحابة رضي الله عنهم فى حياته ﷺ المبادرة إلى حفظ القرآن ، وضبط روايته ، وتتبع وجوه قراءاته .

وكان النبى ﷺ يعرضه على جبريل عليه السلام فى كل عام فى رمضان وفى العام الذى قبض فيه عرض عليه مرتين .

---

(١) هو محمد بن قاسم بن إسماعيل البقرى المصرى الشافعى .

(٢) وهو الجمع الأول .

وكان زيد بن ثابت قد شهد العرضة الأخيرة وهى حاكمة على المتقدمات، وهى التى كان يقرأ الناس بها حتى مات رضي الله عنه ولذلك اعتمده الصديق رضي الله عنه فى جمع القرآن على ما سيأتى بيانه أهـ .

وهذا ظاهر فى أن العرضة الأخيرة كانت بالأحرف السبعة [١]، وأن الناس كانوا يقرءون بها فى عهده صلى الله عليه وسلم وعهد أبى بكر وعمر، إلى أن وقع الاختلاف فى عهد عثمان رضي الله عنه ، فأمر بكتابة المصحف مجرداً عن تلك الوجوه إلى وجه واحد [٢] وقصر الناس على تلاوته لحرف واحد وسيأتى الخلاف فى ذلك .

****

(١) المتواترة المقروء بها والمعتبرة عند أهل الأداء .

(٢) فى المصحف المسمَّى (الإمام) وهو المرجعية عند الاختلاف .

(٣٠) جمع القرآن :

وقال الحاكم فى المستدرك [١] جمع القرآن ثلاث مرات:

الجَمْعَةُ الأولى

إحداها بحضرة النبى ﷺ .

ثم أخرج بسند على شرط الشيخين عن زيد بن ثابت قال : كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع الحديث [٢].

قال البيهقى :

نشبه أن يكون المراد به تأليف ما نزل من الآيات المفرقة فى سورها وجمعها فيها بإشارة النبى ﷺ ، والرقاع جمع رقعة وقد تكون من جلد أو ورق ، وهل هذا الجمع كان بعد العرضة الأخيرة أو كان قبلها واستمر إلى تمام القرآن ، وعلى كل حال فهو مجرد تأليف وجمع لآي القرآن المفرقة فى سورها، وليس فيه نسخ جديد ، وإنما جمعوا نفس المكتوب الذى كان عليه الصلاة والسلام يأمر بكتابته

---

(١) الحاكم فى المستدرك (٢٩٠١) .

(٢) انظر : الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (١ / ١٦٤) .

عند نزوله فى الرقاع والعسب ونحوها، فجعلوا آيات كل سورة فى سورها مرتبة بتوقيف منه ﷺ كما كانوا يقرءونه بينهم حسبما تلقوه منه ﷺ كذلك.

(٣١) ترتيب الآيات توقيفى:

قال فى الإتقان:

الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفى لا شبهة فيه أما الإجماع فنقله غير واحد، منهم الزركشى فى البرهان، وأبو جعفر بن الزبير فى مناسباته وعبارته ترتيب الآيات فى سورها واقع بتوقيفه ﷺ، وأمره من غير خلاف فى هذا بين المسلمين [١].

فقد أخرج بن أبى داود عن أبى أنهم جمعوا القرآن فلما انتهوا إلى الآية التى فى سورة براءة: ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ (التوبة: ١٢٧).

ظنوا أن هذا آخر ما نزل فقال أبى: إن رسول الله أقرأنى بعد هذا آيتين ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨) إلى آخر السورة [٢].

---

(١) انظر الإتقان (١ / ١٧٢).

(٢) رواه أحمد (٢١٢٦٤).

وتقدم حديث زيد بن ثابت : كنا عند النبى ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع .

وأخرج البخارى (١) عن ابن الزبير قال : قلت لعثمان ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴿٢٣٤﴾ ﴾ (البقرة : ٢٣٥) نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها ؟ أو تدعها ؟ قال : يابن أخى لا أغير شيئاً منه من مكانه .

وقال مكى وغيره :

ترتيب الآيات فى السور بأمر من النبى ﷺ .

وقال القاضى أبوبكر فى (الانتصار) :

ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم ، فقد كان جبريل يقول : ضعوا آية كذا فى موضع كذا ، وقال أيضاً : الذى نذهب إليه أن جميع القرآن الذى أنزله الله أو أمر بإثبات رسمه ولم ينسخه ولا رفع تلاوته بعد نزوله هو هذا الذى بين الدفتين الذى حواه مصحف عثمان ، وأنه لم ينقص منه شيء ولا زيد فيه وأن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه الله تعالى ورتبه عليه رسوله من أى السور لم يقدم من ذلك مؤخَّر ولا أخر منه مقدَّم وأن الأمة ضبطت على النبى ﷺ ترتيب آى

---

(١) صحيح : رواه البخارى (٤٢٥٦) .

كل سورة ومواضعها[1] وعرفت مواقعها وكما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة .

(٣٢) الخلاف فى أن ترتيب السور توقيفى :

وأنه يمكن أن يكون الرسول ﷺ قد رتب سوره ، ويمكن أن يكون قد وكل ذلك إلى الأمة بعده ولم يتول ذلك بنفسه ، وقال : وهذا الثانى أقرب وإليه ذهب جماعة من العلماء .

قال ابن فارس جمع القرآن على ضربين:

أحدهما : تأليف السور كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين فهذا هو الذى تولته الصحابة .

وأما الجمع الآخر وهو : جمع الآيات فى السور فهو توقيفى تولاه النبى ﷺ كما أخبر به جبريل عن أمر ربه ، ومما استدل به لذلك اختلاف مصاحف

---

(١) قال عثمان رضي الله عنه : كان ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا إلخ.

انظر : الإتقان (١٧٢) .

السلف فى ترتيب السور [١] فمنهم من رتبها على النزول وهو مصحف على كان أوله (اقرأ ثم المدثر) وهكذا إلى آخر المكى والمدنى.

وكان أول مصحف ابن مسعود (البقرة ثم النساء ثم آل عمران) على اختلاف شديد.

وكذا مصحف أبىّ وغيره.

إن هذه لم تكن مصاحف تلاوة بل مصاحف علم وتأويل قصد بها ضبط حالة خاصة.

وقال ابن الحصار :

ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحى كان رسول الله ﷺ يقول : ضعوا آية كذا فى موضع كذا وقد حصل التعقيب من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله.

---

(١) أخرج أحمد بإسناد حسن عن عثمان بن أبى العاص قال :

كنت جالسًا عند رسول الله ﷺ إذ شخص ببصره ثم صوَّبه ثم قال : أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (النحل: ٩٠) . انظر : الاتقان (١ / ١٧٣).

قال الزركشى فى البرهان :

والخلاف بين الفريقين لفظى لأن القائل بالثانى يقول : إنه رمز إليهم ذلك لعلمهم بأسباب نزوله ومواقع كلماته .

ولهذا قال مالك :

إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبى ﷺ مع قوله بأن ترتيب السور باجتهاد منهم ، فآل الخلاف إلى أنه هل هو بتوقيف قولىٍّ أو بإسناد فعلىٍّ بحيث يبقى لهم فيه مجال للنظر ؟

وسبقه إلى ذلك أبو جعفر بن الزبير .

وفى الألوسى :

أما ترتيب السور ففى كونه اجتهاديًّا وتوقيفيًّا خلاف والجمهور على الثانى.

قال أبو بكر الأنبارى :

أنزل الله تعالى القرآن كله إلى سماء الدنيا ثم فرقه فى بضع وعشرين، فكانت السور تنزل لأمر يحدث ، والآية جواباً لمستخبر ، فيوقف جبريل النبى ﷺ على موضع الآية والسورة ، فمن قدم وأخر فقد أفسد نظم القرآن .

وذهب البيهقى إلى أن :

جمع السور وترتيبها توقيفى إلا براءة والأنفال ، وله انشرح صدر الإمام السيوطى لَمَّا ضاق ذرعاً عن الجواب ، والذى ينشرح له صدر الفقير [١] هو ما انشرحت له صدور الجم الغفير ، أن ما بين اللوحين الآن موافق [٢] لما فى اللوح من القرآن ، وحاشا أن يهمل ﷺ أمر القرآن ، وهو نور نبوته وبرهان شريعته ، فلابد إمَّا من التصريح بمواضع الآيات والسور ، و إمَّا من الرمز إليها بذلك .

وإجماع الصحابة فى المآل على هذا الترتيب وعدولهم عما كان أولاً من بعضهم على غيره من الأساليب ، وهم الذين لا تلين قناتهم لباطل ، ولا يصدهم عن اتباع الحق لوم لائم ، ولا قول قائل أقوى دليل على أنهم وجدوا ما أفادهم علماً ولم يدع عندهم خيالاً ولا وهماً .

(انظر الألوسى والإتقان) .

والحاصل أن هنا ثلاثة أعمال :

جمع الآيات فى السور وبه :ينقسم القرآن إلى مائة وأربعة عشر قسماً بعدد سوره .

---

(١) يقصد المؤلف رحمه الله نفسه

(٢) وتأكد بالعرضة الأخيرة من جميع الوجوه .

وترتيب آيات كل سورة جمعت فيها ، وكلاهما توقيفى قطعاً .

وترتيب السور أى : تعقيب بعضها بعضاً ، وفى كونه توقيفيًّا خلاف ، وقد علمت معناه والحق أنه توقيفى ، وهل وقع ترتيب السور فى هذه الجَمْعَةِ أو وقع فى عهد أبى بكر وهو الظاهر من كلامهم .

والظاهر أن المجموعة المؤلفة من الرقاع فى زمن النبى ﷺ بعد تأليفها وترتيبها إلى العرضة الأخيرة لم تشتمل على المنسوخ تلاوة .

كما يدل عليه ما ذكره صاحب الإتقان : آخر النوع السادس عشر حيث قال البغوى فى شرح السنة :

يقال أن زيد بن ثابت شهد العرضة الأخيرة التى بين فيها ما نسخ وما بقى ، وكتبها لرسول الله ﷺ وقرأها عليه ، وكان يقرئ الناس بها حتى مات، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر فى جمعه وولاه عثمان كَتْبَ المصاحف أهـ .

فقوله : وكتبها إلى آخره أى : كتب العرضة الأخيرة التى استقر عليها الحال تلاوة ، وترك المنسوخ تلاوته ، وأثبت ما عداه ، والظاهر أن المراد بكتابتها لرسول الله ﷺ أنه أتم كتابته بضم ما كتب قبلها إلى ما تمت به ، وليس المراد أنه أنشأ كتابته فى الرقاع والعسب غير ما كتب قبلها .

وبالجملة: فالعرضة الأخيرة هى الأساس المعوَّل عليه فى التلاوة والكتابة وهى المأمور بقراءتها وتلاوتها وكتابتها فى عهد النبى ﷺ إلى وقتنا هذا، وإن كانت فيما قبل عهد عثمان رضي الله عنه متلوة مكتوبة بحروفها السبعة كما نزل القرآن عليه، وفى عهده حَمْلُ الناس بإجماع الصحابة على تلاوتها وكتابتها بوجه واحد كما سيأتى بيانه.

(٣٣) الجمْعَةُ الثانية:

وكانت الجَمْعَة الثانية بحضرة أبى بكر رضي الله عنه [١].

روى البخارى [٢] فى صحيحه عن زيد بن ثابت قال: أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده فقال أبو بكر: إن عمر أتانى فقال: إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإنى أخشى أن يستحرَّ القتل بالقراء فى المواطن، فيذهب كثير من القرآن وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن فقلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ، قال عمر: هو والله خير، فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر،

---

(١) الجمعة الأولى كانت بحضرة النبى ﷺ [انظر عنوان البيان (جمع القرآن) من هذا الكتاب].

(٢) صحيح: رواه البخارى (٤٤٠٢).

قال زيد : قال أبو بكر : إنك شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه فوالله لو كلفونى بنقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىَّ مما أمرنى به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ قال : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال ، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى ، لم أجدها مع غيره ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (التوبة: ١٢٨) أى : لم يجد صحيفتها و إلا فهى محفوظة فى الصدور مقروءة بالألسن .

ولما جمعه رضي الله عنه من الرقاع والعسب المتفرقة فى صحف من ورق ، وكان لا يثبت شيئاً فيها إلا بشهيدين كما سيأتى ، وضعت تلك الصحف عند أبى بكر رضي الله عنه ، وبقيت تحت يده حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بوصية من عمر رضي الله عنه واستمرت تحت يدها حتى طلبت منها فى عهد عثمان رضي الله عنه كما سيأتى .

وإنما اكتفى فى آية التوبه بشهادة خزيمة لأن رسول الله ﷺ جعل شهادته بشهادة رجلين .

وذكر بعضهم أنه لما ولى الخلافة أبوبكر ﷺ وكان قد ارتد كثير من العرب بعد موته ﷺ جهز جيوشاً لقتالهم ، ومن جملتهم جيش لقتال مسيلمة الكذاب ومن معه من المرتدين ، وأمَّر عليه خالد بن الوليد المخزومى ، فالتقى الجمعان وتقاتلا قتالاً عظيماً انهزم فيه المسلمون واستشهد منهم ألف ومائتين منهم سبعمائة من حملة القرآن .

ثم تأمَّر البراء بن مالك ، ورد الهزيمة على المشركين ، وقتل مسيلمة وعشرة آلاف من المرتدين فلما رجعوا قال عمر بن الخطاب لأبى بكر : رضي الله عنهما يا أبا بكر إن القتل قد فشا فى القراء ، وأخاف أن يذهب القرآن بذهاب حملته، وأشار عليه بكتابته .

فقال له أبو بكر:

أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ إلى آخر ما تقدم فجعل يتتبع الرقاع والأضلاع والعسب وصدور الرجال حتى جمعه ورتبه على سبعة أوجه

لقوله ﷺ : «نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ فاقرءوا كيف شئتم»[1] .

وبقيت هذه الصحف التى جمعها زيد عند أبى بكر إلى أن توفى فكانت عند عمر ثم عند بنته حفصه زوج النبى ﷺ أهـ .

وهذا يؤيد ما قدمناه من أن التلاوة والكتابة فى العهد الأول كانت بالأحرف السبعة التى نزل عليها .

وغايته أن الأمة ليست مكلفة فى التلاوة بجميعها بل لها أن تقرأ بأيها شاءت وكلها قراءات صحيحة كالتعبد بتلاوته .

وفى كتاب (نهاية القول المفيد) :

فإن قيل كان زيد حافظاً للقرآن وجامعاً له فما وجه تتبعه المذكورات ؟ والجواب : أنه كان يستكمل وجوه قراءته ممن عنده ما ليس عنده وكذا نظره فى المكتوبات التى قد عرف كتابتها وتيقن أمرها فلابد من النظر فيها وإن كان حافظاً يستظهر لذلك وليعلم هل فيها قراءة غير قراءته أم لا وإذا استند الحافظ عند الكتابة إلى أصل يعتمد عليه كان أكد وأثبت فى ضبط المحفوظ .

---

(١) صحيح : أخرجه النسائى [انظر صحيح الجامع (٧٨٤٢)] .

وفى (إرشاد القراء والكاتبين) :

أن زيداً كتب القرآن كله بجميع أجزائه وأوجهه المعبر عنها بالأحرف السبعة الواردة فى حديث : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه »[١] .

وكان أولاً أتاه جبريل فقال له : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف واحد ثم راجعه إلى السابعة فقال إن الله يأمر ك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرءوا عليه أصابوا .

****

---

(١) رواه البخارى(٢٢٨٧) ، ومسلم (٨١٨) .

(٣٤) اختلافهم فى المراد بالأحرف السبعة :

واختلفت أقوال العلماء فى المراد بهذه الأحرف السبعة على نحو من أربعين قولاً[١] حتى أفرده بعضهم بالتأليف مع إجماعهم على أنه ليس المراد أن كل كلمة تقرأ على سبعة أوجه وعلى أنه ليس المراد قراءات القراء السبعة المشهورين والمختار كما صححه البيهقى أنها اللغات كما تقدم .

واختلفوا فى تعينها فقال أبو عبيدة : قريش وهذيل وهوازن وكنانة وتميم ولؤى ، واليمن ، وقيل غير ذلك .

والحكمة فى إنزال القرآن على سبعة أحرف:

التخفيف والتيسير على الأمة فى التكلم بكتابه كما خفف عليهم فى شريعته كما ورد «إن ربى أرسل إلى القرآن على حرف واحد فرددت عليه أن هوِّن على أمتى » ولم يزل يردد حتى بلغ سبعة أحرف ولو كلفوا جميعاً بالنطق بلغة واحدة وألسنتهم مختلفة لشق ذلك عليهم وتعسر إذ لا قدرة لهم على ترك ما اعتادوه وألفوه من الكلام إلا بتعب شديد وجهد جهيد فكان من تيسير الله تعالى .

---

(١) انظر : تاريخ القرآن – د / عبدالصبور شاهين ، من ص ٥٣ وما بعدها ، ط دار الاعتصام .

وأيضاً : الواحة الخضراء فى تاريخ القراءة والقراء ، خميس جابر صقر ص ٣٢ وما بعدها ط دار الصحابة للتراث بطنطا .

كما قال الإمام أبو محمد عبد الله بن قتيبة فى كتاب (المشكل) :

إن أمر نبيه ﷺ بأن يقرئ كل أمة بلغتهم وما جرت به عادتهم فالهذلى يقرأ :

﴿ عتى حين ﴾ وغيره ﴿ حتى حين ﴾ والأسدى ﴿ يعلمون ﴾ ﴿ وتعلمون ﴾ ﴿ وتسود وجوه ﴾ و﴿ ألم إعهد إليكم ﴾ بكسر حرف المضارعة والتميمى بهمز والقرشى لا يهمز والآخر يقرأ ﴿ قيل لهم ﴾ ﴿ وغيض الماء ﴾ بإشمام الضم مع الكسر وهذا يقرأ ﴿ عليهم وفيهم ﴾ بضم الهاء وهكذا .

وكل ذلك ثابت بالوحى المنزل على نبيه ﷺ قال ابن قتيبة :

ولو أراد كل فريق من هؤلاء أن ينزل على لغته ، وما جرى عليه اعتياده، طفلاً ويافعاً وكهلاً ، لاشتد ذلك عليه وعظمت المحنة فيه ، ولا يمكنه إلا بعد رياضة للنفس وتذليل للسان وقطع للعادة ، فأراد الله برحمته ولطفه أن يجعل له متسعاً فى اللغات ومتصرفاً فى الحركات كتيسيره عليهم فى الدين أهـ .

وهذه اللغات والقراءة بها كانت موجودة ومعمولاً بها إلى عهد عثمان رضي الله عنه ، فلما اختلطت قبائل العرب ، وعرف كل لغة الآخر وسهل على كل قبيلة النطق بلغة القبيلة الأخرى ، وحدث فى عهده رضي الله عنه ما يدعو إلى حمل الناس على

القراءة بلغة واحدة ، أمر ﷺ بجمع القرآن وكتابته وقراءته بخط واحد ولغة واحدة كما سيأتى .

وأخرج ابن أبى داود بسند حسن عن عبد خير قال :

سمعت عليا يقول أعظم الناس فى المصاحف أجر أبوبكر رحمه الله على أبى بكر هو أول من جمع كتاب الله .

وقال على رضي الله عنه : أول من جمع كتاب الله تعالى بالترتيب المخصوص المقبول المجمع عليه عند الأمة كافة: أبو بكر[1] رضي الله عنه وكان كاتبه عند جمعه (زيد بن ثابت) وكان لا يكتب آية إلا بِعَدْ لَيْنِ شاهديْن .

وأخرج ابن أبى داود من طريق يحى بن عبد الرحمن بن حاطب قال :

قدم عمر فقال : من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئًا من القرآن فليأت به .

وكانوا يكتبون ذلك فى الصحف والألواح والعسب وكان لا يقبل من أحد شيئًا حتى يشهد شاهدان .

---

(١) وهو الجمع الأول فى الصحف ، والجمع الثانى من مراحل الجمع عمومًا .

وهذا يدل على أن زيداً كان لا يكتفى بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سماعاً مع كون زيد كان يحفظ ، فكان يفعل ذلك مبالغة فى الاحتياط ولعل الكتابة فى الألواح والعسب كانت نادرة ، وإلا فالمشهور أن الكتابة فى جمع أبى بكر رضي الله عنه كانت فى الصحف .

وأخرج ابن أبى داود أيضاً من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر وزيد : اقعدا فى باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه .... رجاله ثقات مع انقطاعه .

قال ابن حجر :

وكأن المراد بالشاهدين شاهدا الحفظ والكتابة .

وقال السخاوى :

المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدى رسول الله ﷺ أو المراد على أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه [١] التى نزل بها القرآن .

قال أبو شامة :

وكان غرضهم أن لا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدى رسول الله ﷺ لا من مجرد الحفظ .

---

(١) المقروء بها والتى تواترت القراءة بها خلفًا عن سلف .

قال : ولذلك قال فى آخر سورة التوبة (لم أجدها مع غيره) أى لم أجدها مكتوبة مع غيره لأنه كان لا يكتفى بالحفظ دون الكتابة .

وقال السيوطى :

والمراد أنهما يشهدان على أن ذلك مما عرض على النبى ﷺ عام وفاته [١] كما يؤخذ مما تقدم آخر النوع السادس عشر .

ثم قال نقلاً عن الحارث المحاسبى :

فإن قيل كيف وقعت الثقة بأصحاب الرقاع وصدور الرجال.

قيل : لأنهم كانوا يبدون عن تأليف معجز ونظم معروف ، قد شاهدوا تلاوته من النبى ﷺ عشرين سنة فكان تزوير ما ليس منه مأموناً ، وإنما كان الخوف من ذهاب شيء من صحفه وقد تقدم فى حديث زيد أنه جمع القرآن من العسب [٢] واللخاف .

وفى رواية (والرقاع) وفى أخرى : (وقطع الأديم) ، وفى أخرى : (والأكتاف) وفى أخرى : (والأضلاع) ، وفى أخرى : (والأقتاب) جمع قتب وهو الخشب الذى يوضع على ظهر البعير ليركب عليه ، والاقتصار على واحد

---

(١) فى العرضة الأخيرة .

(٢) تقدم بيان ذلك .

منها فى بعض العبارات تغليب ، وما رواه أبو الضريس فى فضائل على كرم الله وجهه أنه لما توفى رسول الله ﷺ تخلف لجمع القرآن فمحمول كما قيل على الجمع فى الصدور [١].

وقيل : كان جمعاً بصورة أخرى لغرض آخر ، ويؤيده أنه قد كتب فيه الناسخ والمنسوخ ، فهو كتاب علم لا كتاب قرآن ، وإلا فقد روى عن على رضي الله عنه أنه قال : رحمه الله على أبى بكر هو أول من جمع القرآن كما تقدم .

فالقرآن وإن كان مكتوباً فى عهد رسول الله ﷺ مؤلف الآيات فى السور لكنه غير مجموع فى موضع واحد ، لا مرتب السور ، بل كان مفرقاً فى العسب واللخاف والرقاع والأكتاف والأقتاب والأضلاع ، مع كونه محفوظاً فى الصدور على ماهو عليه الآن ، فكان أول من جمعه فى نسخة واحدة مرتب الآيات والسور أبو بكر الصديق بمشورة عمر[٢] رضي الله عنه كما دلت عليه الأخبار الصحيحة المترادفة ، وسببه ما علمت من خشية ذهابه بذهاب حملته وضياع شيء من صحائفه وقد تثبت أبو بكر رضي الله عنه فى جمعه فكان زيد وعمر رضي الله عنهما لا يقبلان من أحد شيئًا حتى يشهد عليه شاهدان .

---

(١) الإتقان (١ / ١٦٣) .

(٢) بعد حوار جرى مع الصحابى الجليل زيد بن ثابت رضي الله عنه

(٣٥) فوائد جمع أبى بكر رضي الله عنه :

وقد تضمنت هذه الجَمْعَةُ عدة فوائد منها :

البحث عن صحف الرقاع والتثبت منها وجمعها فى مكان واحد كالأصل الذى يرجع إليه حتى يستتب الأمر ويرسخ ويؤمن الضياع .

وانظر هل كانت الرقاع المجموع منها باقياً على ترتيبها الذى وقع فى عهده صلى الله عليه وسلم أو تفرقت مع حفظ ترتيبها فى الصدور وتواتر التلاوة بها إلى وقت كتابة الصحف البكرية فما بعده ، فإن ترتيب الآيات فى السور لم يتغير حاله فى الجمعات الثلاث[1] .

ومنها تجديد كتابته على الهيئة الأولى فى نسخة واحدة بالغةً نهاية التحرير جامعةً للأحرف السبعة التى نزل بها القرآن من حيث تكون أصلا آخريعول عليه فى الثبوت والبقاء ويرجع إليه عند الحاجة .

وانظر هل كانت السور فى هذه الجَمْعَةِ متصلة متعاقبة فى أوراقها كالآيات فى سورها أو أن كل سورة نسخت على حدتها مترتبة الآيات فى صحف تخصها .

---

(١) الجَمْعَات : بفتح الجيم وإسكان الميم جمع : جَمْعَة والمراد به كما نرى (المجموع) على ما بُسِطَ فيه الكلام آنفًا .

وقد يدل له التعبير بالصحف فرقاً بينها وبين المصاحف ، فالصحف سور مفرقة والمصاحف سور مجموعة مرتبة وعلى ذلك فترتيبها كترتيب الرقاع وكتابتها ككتابتها ، ولم يحدث فى هذه الجمعة إلا نسخها فى تلك الصحف ويحتمل أنها نسخت أجزاء أو أحزاباً ، وإذا لم تكن الرقاع باقية على ترتيبها الأول كان من فوائد هذه الجمعة أيضاً إعادة ترتيب الآيات فى السور كما كان فى عهده ﷺ .

و من فوائدها أيضا تجديد ما عساه أن يكون قد تآكل من حروف الرقاع والعسب التى ليس من شأنها أن تحفظ ما يرسم عليها من الحروف مدة طويلة بخلاف الصحف فإنها أبقى لحفظ ما يرسم بها خصوصاً إذا كانت أحبارها ثابتة ، ومنها اتصال السند الكتابى بالأخذ عن الكتبة النبويه فى جميع آيات القرآن وعن كتابها الذين حضروا عهدها وباشروا كتابتها كاتصال السند المتواتر فى الرواية والتلقى عن الشيوخ ، فهى مع كتبة الرقاع بمثابة الطبقة الثانية من الشيوخ والكتبة العثمانية بمثابة طبقات الشيوخ التى يروى بعضهم عن بعض والصحف البكرية كأنها تروى عن الصحف اللخافية النبوية والمصاحف العثمانية تروى عن الصحف البكرية .

وهكذا فى ما انتسخ منها أوكتب على قاعدتها وكل مصحف كتب على غير هذه القاعدة يعتبر مقطوع السند .

وتقدم عن المحاسبى أن هذه الكتبة لم تغير شيئاً من الرسم النبوى فهى كتبة حفظ وضبط واستبقاء وكذلك سائر الكَتَبَات يجب أن لا تغير شيئاً من الرسم الأصلى ولا يخفى مافى ذلك من الاهتمام بشأن القرآن وضبطه على وجوهه وبقائه بالرسم الثابت المتواتر .

ولعل توقف أبى بكر رضي الله عنه فى جمعه أولاً كان لما رآه من الإكتفاء بطريق الرواية والتحمل ؛ ولأن القرآن موعود بحفظه إلى يوم الدين مع ظن لزوم الإتباع فى عين ما كان عليه الأمر فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما ترجح عنده بعد التثبت والنظر ما أشار به عمر رضي الله عنه انشرح صدره لذلك ووافقه عليه، احتياطاً فى الأمر وازدياداً فى الخير ، وتابعهما زيد بن ثابت وسائر الصحابة.

فكان للقرآن بهذا النحو من الثبوت والحفظ طريقان :

طريق الكتابة [1] وطريق الرواية والتلقى من أفواه الشيوخ وصدور الرجال.

---

(١) وقد انعقد الإجماع على تلك الرسوم فلا يجوز العدول عنها إلى غيرها إذ لا يجوز فرق الإجماع بوجه ، والإجماع حجة ومحال فى حق الصحابة أن يخالفوا ما أقره النبى صلى الله عليه وسلم ويتصرفوا فى القرآن بأىّ زيادة أو نقصان .

انظر : الجمع الصوتى الأول للقرآن د/ لبيب السعيد ، ص ٢٩٧ ، ط دار المعارف .

وهـذا الطريـق يمتـاز عـن الأول بالأصـالة والأسـبقية وتعـديل الحـروف والكلمات ومعرفة الوجوه والصفات وغير ذلك مما يفى به النطق ولا تؤديه رسوم الكتابة ، التى هى لحفظ المادة أقرب منهـا إلى حفـظ الهيئـة ، فهـو المعـول عليـه فى الثبوت والبقاء ، وإن وجب على الأمة المحافظـة عـلى الطريـق الأول بمعنـى أنـه يجب عليهم أن يجددوه على نحو هذه الكتبة المأثورة ، ولا يجوز لهم أن يكتبوه عـلى غيرها كما سيأتى ؛ لأن القرآن شأنه واحد نظماً وخطاً فكما أن نظمه عربـى معجـز ذو هيئـة مخـصوصة لا تثبـت إلا بـالوحى ولا تعـرف إلا بالروايـة والتلقـى عـن الشيوخ كذلك رسمه عربى معجز لا يعرف إلا بالأخذ عن تلـك الكتبـة العاليـة هذه هى سنة القرآن فى الوجود المشهود خلفاً عن سلف .

ولن تجد لسنة الله تبديلاً وقد قيَّض الله لحفظ وجـوده الكتـابى طائفـة مـن الأمة وضعوا له علم الرسم[١] القرآنى ، وأسسوا قواعده ودونوا مسائله وضبطوا أصوله وفروعه بحيث لو فقدت المصاحف العثمانية كـما فقـدت اللخـاف النبويـة والصحف البكرية ، أو اختلف الناس فى رسـم أى حـرف مـن حروفهـا لأمكـن

---

(١) وهو الركن الثانى من أركان القراءة وهو (احتمال الرسم) .

إحياؤها والرجوع إلى كتابتها بمراعاة هذا العلم وضوابطه[1] الحافظة لنظمه وتلاوته عن الخطأفى رسمه كما قيض الله لحفظ وجوده اللفظى ونظمه العربى طائفة من الأمة وضعوا علم التجويد والقراءات لمعرفة رواياته وضبط حروفه ووقوف كلماته وحفظه من الخطأ فى النطق به.

واعلم أن للقرآن ما يشبه هذين النحويْن من الوجود فى عالم الملكوت فقد أثبت فى اللوح المحفوظ كتابه، وألقى فى روع الملك تلقياً ورواية، فشأنه فى العالمين واحد لا يتغير ولا يتبدل و ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (فصلت: ٤٢).

****

(١) وفى شرح الطحاوى : (ينبغى لمن أراد كتابة القرآن أن ينظم الكلمات كما هى فى مصحف عثمان رضي الله عنه لإجماع الأمة على ذلك). انظر : الجمع الصوتى الأول للقرآن (ص ٢٩٩).

(٣٦) الجَمْعَةُ الثالثة :

وهذه الصحف البكرية الجامعة لهذه الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن بقيت عند أبى بكر حتى توفاه الله تعالى سنة ١٣ هجرية ، ثم عند عمر حياته حتى توفى فى ذى الحجة سنة ٢٣ هجرية ، ثم عند حفصة بنت عمر زوج النبى ﷺ وفى خلافة عثمان رضي الله عنه حينما وقع تشاجر فى القراءة ، وادّعى كل واحد من المتشاجرين أن قراءته هى الصحيحة دون الأخرى .

وكان القراء الذين سلموا من القتل عند فتح اليمامة فى زمن أبى بكر ماتوا عند فتح (أرمينيا) و(أذربيجان) فى زمن عمر وعثمان ، رأى عثمان رضي الله عنه أن يجرد المصحف من تلك الأوجه السبعة إلى وجه واحد [1] منها لئلا يكثر الخلاف بين الناس ويتناكروا فى القرآن الثابت بالتواتر ، فيقعوا فى إثم عظيم ولعدم الداعي بعد اشتهار القرآن وتعلمه واختلاط قبائل العرب إلى تعدد لغاته لسهولة

---

(١) قال القاضى أبو بكر الباقلانى :

(لم يقصد عثمان قصد أبى بكر فى جمع نفس القرآن بين لوحين ، وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابته المعروفة عن النبى ﷺ وإلغاء ماليس كذلك وأخذهم بمصحف لاتقديم فيه ولا تأخير ولا تأويل أثبت مع تنزيل ولا منسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتى بعده) . انظر : تاريخ المصحف الشريف للعلامة الشيخ عبدالفتاح القاضى (ص ٢٥) .

النطق بلغة واحدة على الكل ، فأحضر المهاجرين والأنصار وأرسل إلى السيدة حفصة يسألها أن تعطيه الصحيفة التى عندها ، وحلف ليردنها فأرسلت إليه الصحائف التى جمعها (زيد بن ثابت) فى عهد أبى بكر رضي الله عنه ثم قال : يامعشر المهاجرين والأنصار أى الناس أعرف ؟ بالقرآن قالوا : سعيد بن العاص قال : وأى الناس أكتب ؟ قالوا : زيد بن ثابت .

قال : فليملل سعيد وليكتبْ زيد وأحضر معهما عبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام .

وأخرج ابن أبى داود أنه جمع اثنى عشر رجلاً من قريش والأنصار وقال لهم : إذا اختلفتم فى لغة فاكتبوها بلغة قريش فلم يختلفوا إلا فى ﴿ التابوت ﴾ فى البقرة فقال زيد بالهاء وقال غيره بالتاء فكتبوه بالتاء .

****

(٣٧) كتابة المصاحف العثمانية وإرسالها إلى الجهات الإسلامية :

وبعد أن أتموُّه قوبل بالصحائف البكرية [١] فلم يختلف فى شيء فردها إلى حفصة ، وطابت نفسه ، ثم أمر بنسخ أربع نسخ ثم زيد ثلاث أو أربع وأرسل بها إلى الجهات ، وأمسك واحدة ، فأرسل إلى مكة وإلى الشام وإلى اليمن وإلى البحرين وإلى البصرة وإلى الكوفة وحبس بالمدينة واحدة .

كما أخرج ذلك ابن أبى داود من طريق حمزة الزيات [٢] والمراد ﴿التابوت﴾ فى الآية : صندوق التوراة وهو على وزن ﴿فعلوت﴾ من التوب وهو الرجوع لأنه يرجع إليه ما يخرج منه عادة فتاؤه مزيدة كتاء ملكوت وأصله (توبوت) قلبت واوه ألفاً وهى لغة قريش ، والوقف عليه بالتاء فى أكثر اللغات ، ومن وقف عليه بالهاء فإنه أبدلها من التاء ولغة الأنصار (تابوه) بالهاء من (تبه) .

كما ذكره ابن سيدة ولعل رسم هذه الكلمة فى الصحف البكرية كان بهيئة تحتمل الوجهين ، كأن كانت مكتوبة بتاء مفتوحة وعليها صورة هاء أو بالعكس ،

---

(١) المنسوبة إلى الخليفة الأول : أبوبكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) الإمام السادس : حمزة بن حبيب الزيات الكوفى .

أو مكتوبة بالتاء ، وفيمن كان مع زيد من لغته أنصارية فلذلك اختلفوا (انظر الألوسى واللسان) .

قال أبوعمر وابن عبدالبر :

ولما اختلف [١] الناس فى القراءة زمن عثمان واتفق رأيه ورأى الصحابه أن يردوا القرآن إلى حرف واحد وقع اختيارهم على حرف زيد فأمره أن يملى المصحف على قوم من قريش جمعهم إليه فكتبوه على ما هو عليه اليوم .

ومن هنا يعلم أن الصحف البكرية لم تكن قاصرة على لغة قريش ، بل كانت جامعة لها ولغيرها ، وهذا يؤيد ما ذهب إليه السجستانى من أن المراد بقومه فى قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ [٢] قَوْمِهِۦ ﴾ (إبراهيم: ٤) هم العرب لا خصوص قريش ، وأن قولهم فى عثمان رضي الله عنه أنه أول من جمع مصحف القرآن ليس على ظاهره ، فإن أبا بكر رضي الله عنه جمعه فى مصحف وبقيت هذه الصحف عند حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها إلى أن ماتت فسلمها عبدالله بن عمر لجمع من الصحابة فغسلت غسلا.

---

(١) بعد معركة (أرمينية وأذربيجان) فى السنة الثانية أو الثالثة من الهجرة فى خلافة عثمان 

(٢) أى بلغة قومه على قول ابن عباس رضي الله عنهما ، انظر : تنوير المقباس .

بل قيل : قد جمعه جماعة من الصحابة أيضاً ومن أشهرهم عبدالله بن مسعود ولكن الصحيح الذى عليه الجمهور أن أول من جمعه هو أبوبكر الصديق رضي الله عنه .

(٣٨) سبب جمع عثمان رضي الله عنه :

ثم إن عثمان رضي الله عنه حمل الناس على القراءة بوجه واحد باختيار وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين والأنصار ، لما خشى الفتنة من اختلاف أهل العراق والشام فى حروف القرآن كما سيأتى .

فقد روى البخارى عن أنس :

أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح (أرمينيا وأذربيجان [١]) مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم فى القرآن فقال لعثمان : أَدْرِكْ هذه الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى .

فأرسل إلى حفصة أن أرسلى إلينا الصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصه إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف .

---

(١) كما سبقت الإشارة إليه آنفاً.

وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة :

(إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم) ففعلوا حتى إذا مانسخوا المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخه وأمر بما سواه من القرآن فى كل صفحة أو مصحف أن يحرق ، قال زيد :ففقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصارى.

قال ابن حجر :

وكان ذلك فى خمس وعشرين ، قال : وغفل بعض من أدركناه فزعم أنه كان فى حدود سنة ثلاثين ولم يذكر له مستنداً والصحف التى أمر بحرقها غير الصحف التى ردت إلى السيدة حفصة [1] وهى ما كانت مشتملة على وجوه غيروجوه تلك الصحف من روايات ضعيفة أو شاذة أو تقديم أو تأويل أو تأخير.

---

(١) قال بعض الأفاضل :

(وإنما لم يحرق عثمان صحف حفصة كما أحرق غيرها ؛ لأن الصحف اعتبرت مصدراً وأصلاً لمصحفه وانعقد عليها إجماع الصحابة وأمّا غيرها فقد تكون مخالفة لمصاحفه فيكون سببًا للاختلاف) . انظر : تاريخ المصحف ص ٢٣ للعلامة الشيخ عبدالفتاح القاضى .

وأما صحف السيدة حفصة فقد استردها بعد وفاتها (مروان) حين كان أميراً بالمدينة من جهة معاوية ، وأمر بتشقيقها وقال : إنى فعلت هذا لأنى خشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب فى شأن هذه الصحف مرتاب .

وتقدم أنها غسلت ولعله بعد تشقيقها جعل مجموعة اللخاف والعسب كذلك ، حرقت أو غسلت أو بقيت بمكانها حتى أسرع إليها البلى لأنها لم تكتب معدة للتلاوة ولا صالحة للإستعمال والبقاء وإنما كتبت مؤقتاً لمجرد الإثبات والحفظ فليست كالصحف البكرية ولا كالمصاحف العثمانية .

وفى رواية أن حذيفة قال :

يا أمير المؤمنين أدرك الناس فقال عثمان : وما ذاك قال : غزوت مرج أرمينيا فحضرها أهل العراق وأهل الشام فإذا أهل الشام يقرءون بقراءة أبى بن كعب فيأتون بما لم يسمع به أهل العراق فيكفرهم أهل العراق وإذا أهل العراق يقرءون بقراءة ابن مسعود فيأتون بما لم يسمع أهل الشام فيكفرهم أهل الشام قال زيد : فأمرنى عثمان إلى آخر القصة .

وأخرج بن أشتة من طريق أيوب عن أبى قلابة قال :

حدثنى رجل من بنى عامر يقال له أنس بن مالك قال : اختلفوا فى القرآن على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان والمعلمون ، فبلغ ذلك عثمان بن عفان فقال :

عندى تكذبون به وتلحنون فيه ، فمن نأى عنى كان أشد تكذيباً وأكثر لحناً ، يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً ، فاجتمعوا فكتبوا فكانوا إذا اختلفوا وتدارءوا وفى آية قالوا : هذه أقرأها رسول الله ﷺ فلانا فيرسل إليه وهو على رأس ثلاث من المدينة فيقال : كيف أقرأك رسول الله ﷺ آية كذا فيقول : كذا وكذا فيكتبونها وقد تركوا لذلك مكاناً ، وهذا يؤيد ما قدمناه من أن رسم الكتابة قد لا يفى بما يؤديه النطق [1] وأن من الوجوه السبعة مما لا يضبطه الرسم فيرجع إلى طريق الرواية والتلقى ، لافرق فى ذلك بين الرقاع النبوية والصحف البكرية والمصاحف العثمانية .

ولذا أرسل عثمان رضي الله عنه مع كل مصحف إماماً يرشد الناس إلى وجه قراءته والنطق بحروفه .

قال الألوسى فى تفسيره :

وهذا الذى ذكرناه من فعل عثمان هو ماذكره غير واحد من المحققين حتى صرحوا بأن عثمان لم يصنع شيئاً فيما جمعه أبو بكر من زيادة أو نقص أوتغيير ترتيب سوى أنه جمع الناس على القراءة بلغة واحدة وهى لغة قريش محتجاً بأن

---

(١) أى : عن طريق التلقى والمشافهة .

القرآن نزل بلغتهم ، وهو ظاهر فى أن ترتيب السور كترتيب الآيات كـان فى عهـد أبى بكر رضي الله عنه خلافاً لما ذكره الحاكم فى مستدركه .

قال الكرمانى :

ترتيب السور هكذا هو عند الله فى اللوح المحفوظ وعليـه كـان رسـول الله صلى الله عليه وسلم يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه وعرض عليه فى الـسنة التى توفى فيها مرتين[١] .

وقال الطيبى :

مثله وهو المروى عن جمٍّ غفير حتى قيل : إنه توقيفى وعَـزَى إلى الجمهـور فالقرآن فى عهد أبى بكر رضي الله عنه كان مجموعا فى مصحف واحد منسوخا من اللخاف والعسب مرتب الآيات والسور جامعاً للأحرف السبعة مـن لغـات العـرب كـما تقدم فى عهد عثمان رضي الله عنه سنة خمس وعشرين هجرية كتب منـه عـدة مـصاحف مجردة عن الأوجه المتعددة إلى وجه واحد ، وهـى المعـبر عنهـا بـالأحرف الـسبعة خشية أن يتوسع الناس فى لغاتهم ، ويكثر الخلاف بينهم ويتسرب اللحـن والخطـأ إلى القراءة والكتابة بسبب وجود تلك الأحـرف التـى اشـتمل عليهـا المـصحف

---

(١) فكان جبريل عليه السلام يقرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بعد ذلك يقرأ الرسول صلى الله عليه وسلم بعـده يعرض عليه ما سمعه منه وكان ذلك فى العرضة الأخيرة على ما ذكرنا سابقًا .

البكرى ، وتناقلها الناس قراءة وكتابة على وجه لا يتيسر ضبطه إلا للخاصة العارفين بها الواقفين على رسومها ، فكانت هذه الكتبة العثمانية مع ما احتفت به من التحفظات مؤيدة للكتبة البكرية فى الضبط والحفظ حاسمة للفتن مانعة للخلاف والتناكر والمراء والجدل فى القرآن، ولذلك لم يتوقف سيدنا عثمان رضي الله عنه فى هذا العمل حينما عرضت عليه نوازل الخلاف وما ترتب عليه من الهرج لأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة .

مع أن أوجه القراءة إذ ذاك كانت محفوظة من طريق الرواية والتلقى عن الشيوخ وهو الطريق المعول عليه فى حفظ القرآن وضبط رواياته ولغاته التى نزل بها على أن ذلك لم يكن عن رأيه الخاص ، بل كان برأى جمع من الصحابة رضي الله عنهم .

فقد أخرج ابن أبى داود بسند صحيح عن سويد قال : قال على :

لا تقولوا فى عثمان إلا خيراً فوالله ما فعل الذى فعل فى المصاحف إلا عن ملأٍ منَّا قال : ما تقولون فى هذه القراءة ؟ قد بلغنى أن بعضهم يقول : أن قراءتى خير من قراءتك وهذا يكاد يكون كفراً .

قلنا : فما ترى ؟ قال :أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف قلنا:فنعم ما رأيت [1] وسيأتى أن الإختلاف الواقع

---

(١) عزاه الهندى فى كنز العمال لابن الأنبارى فى المصاحف .

فى المصاحف العثمانية لايخرجها عن كونها مصحفاً واحداً من حيث اشتمالها على الوجه الواحد أو الأوجه الثابتة المعروفة وتجردها عن غير المعروفة فى زمنه ﷺ.

وأخرج ابن أبى داود من طريق محمد بن سيرين عن كثير بن أفلح قال: لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثنى عشر رجلاً من قريش والأنصار فبعثوا إلى الربعة التى فى بيت عمر فجيء بها وكان عثمان يتعاهدهم فكانوا إذا تدارءوا فى شيء أخروه قال محمد: فظننت أن ما كانوا يؤخرونه لينظروا أحدثهم عهدا بالعرضة الأخيرة فيكتبونه على قوله اهـ .

والربعة فى اللغة: (جونة العطار) وهى ما يضع فيه بضاعته والمراد بها الوعاء الذى وضعت فيه الصحف وبالضرورة قد رأى سيدنا عثمان ومن معه من الصحابة رضي الله عنهم أن انتشار الصحف البكرية وتداولها بين الناس على هذه الوجوه موجب للخلاف المذكور، وإن الإقتصار على وجه واحد حاسم لهذه الفتنة وقد علمت أن الأمة لم تكن مكلفة بحفظ الأحرف السبعة كلها بل كانت مخيرة بالقراءة بأيها شاءت، وتواترها كما صرح به بعضهم إذ ذاك لا يستلزم وجوب معرفتها، وإن بقى كثير من حفاظها إذ ذاك لأنها وجوه أنزل القرآن بها وأجمع على اتباعها والأخذ برسومها وغايته أنه أمر بالاقتصار على حرف منها

لأسباب طارئة [١]، لولم تكن لبقى الأمر على تلاوتها والأخذ بها، وهذا مثل ما عليه قرآء القرآن بالروايات اليوم، فإن كثيراً منهم تعلم القرآن بالروايات من غير تأهل ولا أحكام، ويقرأ بها فى المجالس العامة جمعاً وإفراداً وقد أدَّى ذلك إلى وجود خلل كثير فى التلاوة، ولو كانوا فى الصدر الأول أو كان فيهم من أهل الصدر الأول لمنعوا من القراءة بالروايات، وقصروا على رواية واحدة سداً لذريعة الفساد، وليس فى ذلك إلغاء لتلك الروايات أو إهمالها ولكن لما لم يكن لدرء المفسدة طريق إلاَّ قصر الناس على رواية واحدة مع عدم وجوب التلاوة لجميعها تعين ذلك للوصول إلى هذه الغاية.

ولو تعلم الناس كلهم وجوه الروايات بإحكام واستعداد تام لضبطها ومعرفة شروط [٢] أدائها لما كان هناك داع لقصرهم على القراءة برواية واحدة فكذا الأمر فى كتبة المصاحف العثمانية والاقتصار على حرف واحد، لولم يقع خلاف وتناكر فى القراءة لما قصر الأمر على حرفها المذكور مع كونها كفيلة

---

(١) كما فى مصحف (الإمام) والذى كتب بلا نقط ولا شكل أى: كان معرًّى منها ليحتمل أيَّ قراءة عند حدوث الخلاف فإن وافق - عندئذ - وإلا ردَّت القراءة قمعًا للفتنة وصَوْنًا للقرآن وهذا من كمال الحكمة والحرص.

(٢) وقد هيأ الله تعالى من العلماء من ضبط وحقق حتى بلغ حدَّ الإتقان.

بحكمة الكتبة البكرية ، وهى خشية أن يذهب القرآن أو شيء من صحائفه بذهاب حملته فالكتبة الأخيرة هى الحاسمة الجامعة .

(٣٩) الفرق بين جمع أبى بكر وعثمان رضي الله عنهما :

قال ابن التين وغيره :

الفرق بين جمع أبى بكر وجمع عثمان أن جمع أبى بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته ؛ لأنه لم يكن مجموعاً فى موضع واحد ، فجمعه أبو بكر رضي الله عنه فى صحائف مرتباً لآيات سوره على ما وقفه النبى صلى الله عليه وسلم .

وجمع عثمان كان لكثرة الإختلاف فى وجوه القراءة حتى قرءوه بلغاتهم على اتساع اللغات فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض فخشى من تفاقم الأمربذلك فنسخ تلك الصحف فى مصحف واحد مرتباً لسوره ، واقتصر من سائر اللغات لغة قريش محتجاً بأنه نزل بلغتهم وإن كان قد وسع فى قراءته بلغة غيرهم دفعاً للحرج والمشقة فى ابتداء الأمر فرأى أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت واقتصرت على لغة واحدة أ هـ .

وهو ظاهر فى أن القرآن نزل أولاً بلغة قريش ثم رخص فى قراءته بلغة غيرهم [1] أى فى بعض كلماته وأن هذه اللغات التى كانوا يقرءون بها وأدت إلى

---

(١) سواء كان ذلك فى الأصول أو الفرش .

الاختلاف فى وجوه القراءة كانت فى عهده ﷺ وفى عهد أبى بكر وعمر ثم لمَّا ازداد الخلاف ، وتفاقم فى عهد عثمان رضي الله عنه وخشى مع طول العهد أن يؤدى التناكر فى القرآن إلى الردة بعد الإسلام .

كما ذكره الإمام الطبرى منع رضي الله عنه العمل على تلك الأحرف ، وقصر التعبد بالتلاوة والكتابة على وجه واحد ، وعليه فيكون المسوغ لنسخ المصاحف العثمانية من الرقاع والعسب مجردة عن تلك الأحرف ، وحمل الناس على القراءة بحرف قريش ليس مجرد درء مفسدة الخلاف المذكور ، بل ولأن الحاجة إلى تعدد اللغات فى مبدأ الأمر ، وانتهت مع عدم وجوب التلاوة بجميعها وتخصيص لغة قريش ؛ لأن القرآن أنزل بها أولاً ولأنها أرسخ اللغات وأفصحها .

بل قيل : إن القرآن نزل بها وأن الأحرف السبعة فى بطونها كما ذهب إليه بعضهم وإن كان المشهور أن القرآن نزل بتلك الأحرف السبعة وأنها أعم من لغة قريش ، وإن كان لقريش الحظ الأوفر منها فى القرآن .

****

(٤٠) الجمهور على أن المصاحف العثمانية لم تشتمل إلا على حرف واحد :

وعلى هذا فكتبة المصاحف العثمانية لم تشتمل إلا على حرف واحد من تلك الأحرف السبعة[١] وهو حرف قريش وإليه ذهب جمهور العلماء وأئمة المسلمين .

قال ابن الجزرى :

وهذا هو الذى يظهر صوابه خلافاً لجماعة من الفقهاء والقراء والمتكلمين من اشتمال المصاحف العثمانية كالرقاع النبوية والصحف البكرية على جميع الأحرف السبعة ، وبنوا عليه أنه لا يجوز على الأمة أن تهمل نقل شيء منها .

وقد أجمع الصحابة على نقل المصاحف العثمانية من الصحف التى كتبها أبو بكر وأجمعوا على ترك ما سوى ذلك من الصحف المشتملة على وجوه غير معروفة عن النبى ﷺ من لغة العرب أو على منسوخ أو تأويل ، وهذه هى التى أمر عثمان رضي الله عنه بتركها وحرقها ، فالصحف العثمانية عند هذه الطائفة كالصحف البكرية فى جمعها للأحرف السبعة والمأمور بحرقه وكف الناس عن تلاوته ، وصحف أخرى مشتملة على لغات غير معروفة أو على منسوخ أو تأويل أو روايات آحاد وهى التى وقع التناكر فى قراءتها .

---

(١) وقد وجهنا ذلك سابقًا فليرجع إليه .

والقرآن إنما ثبتت قرآنيته بالتواتر أو الشهرة الصحيحة والأحرف السبعة من هذا القبيل وربما يؤيد هذا ما ذكره القاضى أبوبكر فى (الانتصار) حيث قال :

لم يقصد عثمان رضي الله عنه قصد أبى بكر فى جمع القرآن بين لوحين ، وإنما قصد جمعه على القراءات الثابتة المعروفة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وإلغاء ما ليس كذلك وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير ولا تأويل أثبت مع تنزيل ولا منسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه خشية دخول الفساد والشبهة على ما يأتى بعد[1] . أهـ .

وقد يستأنس له أيضاً : برد الصحف البكرية إلى حفصة وعدم الأمر بحرقها كما أمر بحرق غيرها ، مما كان غير معروف إشارة إلى أن مثار الفساد والخلل ليس لما فى المصاحف البكرية من تعدد الأحرف وإنما هو للتوسع فى اللغات والقراءات السبعة التى لم تثبت ولم تعهد فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، ولو اقتصروا فى القراءة على ما اشتهر من اللغات السبع لما صنع عثمان رضي الله عنه وعلى هذا فالكتبات الثلاثة النبوية والبكرية والعثمانية لم تختلف من حيث اشتمالها على الأحرف السبعة ، وإن اختلفت قصداً وأثراً من جهة أخرى ، فالتأليف فى الزمن النبوى ، والجمع فى الصحف بين لوحين فى زمن الصديق ، والنسخ فى المصاحف

---

(١) انظر : تاريخ المصحف للعلامة الشيخ عبدالفتاح القاضى .

المتعددة فى زمن عثمان منضماً إليه أمره بحرق كل ما اشتمل على وجوه غير معروفة أو منسوخ أو تأويل وإرساله تلك المصاحف المعروفة إلى الجهات وحمل الناس على اتباعها ، والأخذ برسومها تلاوة وكتابة وبعثه مع كل مصحف من يرشد إلى وجوه قرآءته ، فقد بعث عبد الله بن السائب مع المكى ليقرئ الناس به ، والمغيرة بن شهاب مع الشامى ، وأبا عبد الرحمن السلمى مع الكوفى ، وعامر بن قيس مع البصرى ، وأمر زيد بن ثابت أن يقرئ الناس بالمدنى ، وكان فى تلك البلاد الجم الغفير من حفاظ القرآن من التابعين فقرأ كل مصر بما فى مصحفه[١] .

وقد علمت أن الأول هو المشهور المعروف عند جمهور العلماء وأئمة المسلمين .

ونقل صاحب الإتقان عن الحارث المحاسبى :

أن المشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان وليس كذلك .

وإنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد على اختيار وقع بينهم وبين من شهده من المهاجرين والأنصار ، لما خشى الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام فى حروف القراءات ، فأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من

---

(١) وقد أرسل إلى كل مصر مصحفًا ومعلمًا ليقرئ الناس بقراءتهم والأمصار الخمسة هى : المكى والشامى والكوفى والبصرى والمدنى .

القراءات المطلقات على الحروف السبعة التى نزل بها القرآن ، وأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصديق ، فقد قال على : لو وليت لعملت بالمصاحف التى عمل بها عثمان أهـ .

وتقدم عنه أنه نقل أيضاً عن أبى حاتم السجستانى :

أن القرآن نزل على سبع لغات من لغة العرب وهى لغة : قريش وهذيل وتميم والأزد وربيعة وهوازن وسعد بن بكر .

وابن قتيبة استنكر ذلك وقال :

لم ينزل القرآن إلا بلغة قريش محتجاً بقوله:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴿٤﴾ ﴾(إبراهيم: ٤) .

وإن هذه اللغات السبع فى بطون قريش وفيه أنه لادلالة فى الآية على ذلك بل الآية يصح أن توافق الطريقتين لأن المراد بقومه ﷺ إما قريش أو العرب فالصواب الأول كما قال ابن الجزرى.

****

(٤١) اختلاف المصاحف فى الرسم لا يوجب اختلافها فى اللغة [١] :

وسواء قلنا إن المصاحف العثمانية مشتملة على الحروف السبعة أو مقصورة على حرف واحد ، فالظاهر أن جميعها كانت على صورة واحدة ، وإنه لا تخالف بينهما فى الرسم ، بل كانت بشكل واحد لا يحتمل خلافاً فى الدلالة والتلاوة مع أنهم ذكروا فى قوله تعالى فى سورة الأنعام :

﴿ لَّئِنْ أَنجَىٰنَا ﴾ (الأنعام : ٣٦) أنه مكتوب فى المصحف الكوفى بالألف وفى غيره بالتاء بعد الياء وفى قوله تعالى :

﴿ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ (غافر: ٢١) أنه كتب ﴿ منكم ﴾ بالكاف فى مصاحف الشام وبالهاء فى غيرها وهذا ونحوه مع قول الإمام ابن الجزرى وغيره فى قصة بعث المصاحف وقرأ كل أهل مصر بما فى مصحفهم ظاهر فى وجود اختلاف بين تلك المصاحف .

---

(١) أى عند توافق اللفظ مع الرسم الموجود فى كل المصاحف والتى يسميها ابن الجزرى بـ (الموافقة الصريحة) .

انظر : رسم المصحف ونقطه دكتور عبدالحى الفرماوى ص ١٥١ ، ط دار نور المكتبات – مؤسسة الريان .

والجواب: أن هذا اختلاف قراءات فى لغة واحدة[1] لا اختلاف لغات قصد بإثباته انفاذ ماوقع الإجماع عليه إلى أقطار بلاد المسلمين، واشتهاره بينهم وإنما كتبت هذه فى البعض بصورة وفى آخر بأخرى لأنها لو كررت فى كل مصحف لتوهم نزولها كذلك، ولو كتبت بصورة فى الأصل، وبأخرى فى الحاشية لكان تحكماً مع إيهام التصحيح، ومثل هذا بعد أمر عثمان رضي الله عنه وبعثه إلى كل جهة ما أجمع الصحابة على الأخذ به، ولا يؤدى إلى تنازع أو فتنة لأن أصل كل جهة قد استندوا إلى أصل مجمع عليه، وإمام يرشدهم إلى كيفية قراءته.

والحاصل: أن المصاحف العثمانية كتبت بحرف واحد وهو حرف قريش، وإن هذا الحرف يسع من القراءات الصحيحة ما يرسم بصورة مختلفة إثباتاًوحذفاً وإبدالاً فكتب فى بعضها برواية وفى بعضها برواية أخرى تقليلاً للاختلاف فى الجهة الواحدة بقدر الإمكان فكما اقتصر على لغة واحدة فى جميع المصاحف اقتصر على رسم رواية واحدة فى كل مصحف، والمدار فى القراءة على عدم الخروج على رسم تلك المصاحف.

---

(١) يعنى فى وجوه القراءات المختلفة كما فى:

﴿ وَوَصَّى - وَأَوْصَى ﴾ وكذا ﴿ وَوَاعَدْنَا - وَوَعَدْنَا ﴾ .

ولذا لا يخطر على أهل أى جهة أن يقرءوا بما يقتضيه رسم الجهة الأخرى، وتقدم فى بيان ضابط القرآة المعتد بها أن المعوَّل عليه صحة السند، وأن مخالفة المصاحف العثمانية منها ماهومردود، ومنها ما هو غير مردود وذكر الإمام محمد بن جرير الطبرى(١) فى تفسيره أن إمام المسلمين وأمير المؤمنين عثمان بن

---

(١) ابن جرير هو الإمام المجتهد أبوجعفر الطبرىمن أهل طبرستان، ولد سنة أربع أو خمس وعشرين ومائتين، وقرأ القرآن على سليمان بن عبدالرحمن الطلخى، وطاف الأقاليم فى طلب العلم وسمع عن الثقات الأجلة.

وله تصانيف عديدة فى علوم كثيرة منها كتاب التفسير، وكتاب التاريخ، وكتاب اختلاف العلماء، وتاريخ الرجال من الصحابة والتابعين، وابتدأ كتاب الوسيط فخرج منه كتاب الطهارة فى نحو ألف وخمسمائة ورقة وخرج منه أكثر كتاب الصلاة، وآداب الحكام وكتاب المحاضر والسجلات وغير ذلك.

وجمع من العلوم مالم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، فكان حافظاً لكتاب الله تعالى بصيراً بالمعانى، فقيهاً فى أحكام القرآن، عالماً بالسنة وطرقها صحيحها وسقيمها ناسخها ومنسوخها عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

وحكى أنه مكث أربعين سنة فكتب فى كل يوم منها أربعين ورقة وحسبوا له منذ بلغ الحلم إلى أن مات تصنيف أربعة عشرة ورقة كل يوم.

وتوفى آخر شوال سنة ٣١٠ ودفن بداره فى رحبة يعقوب وصلى على قبره عدة شهور ليلاً ونهاراً ورثاه خلق كثير من أهل الدين والأدب رحمه الله رحمة واسعة.

(انظر طبقات الشافعية الكبرى للإمام تاج الدين بن السبكى).

عفان رضي الله عنه تعالى جمع المسلمين على حرف واحد ومصحف واحد نظراً منه إليهم وإشفاقاً عليهم ورأفة بهم حذار الردة بعد الإسلام، والدخول فى الكفر بعد الإيمان، إذ ظهر من بعضهم بمحضره وفى عصره التكذيب ببعض الاحرف السبعة التى نزل عليها القرآن، مع سماع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منه عليه السلام النهى عن التكذيب بشيء منها، وإخباره إياهم أن المراء فيها كفر، فحملهم رضي الله عنه عليه إذ رأى ظاهرًا بينهم فى عصره ولحداثة عهدهم بنزول القرآن وفراق رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بما أمن عليهم معه عظيم البلاء فى الدين من تلاوة القرآن على حرف واحد وجمعهم على مصحف واحد وحرف واحد وترك ما عدا المصحف الذى جمعهم عليه، وعزم على كل من كان عنده مصحف مخالف للمصحف الذى جمعهم عليه أن يحرقه، فاستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة ورأت أن فيما فعل من ذلك الرشد والهداية، فتركت القراءة بالأحرف الستة التى عزم عليها أمامها العادل فى تركها طاعة منها له، ونظر منها لأنفسها ولمن بعدها من سائر أهل ملتها، حتى درست من الأمة معرفتها، وتعفت آثارها فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها، لدثورها وعفو آثارها، وتتابع المسلمين على رفض القراءة بها من غير جحود منه بصحتها، وصحة شيء منها ولكن نظراً منها لأنفسها ولسائر أهل دينها فلا قراءة اليوم للمسلمين إلا بالحرف الواحد الذى اختاره لهم إمامهم الشفيق الناصح دون ماعداه من الأحرف الستة الباقية.

فإن قال بعض من ضعفت معرفته : وكيف جاز لهم ترك قراءة أقرأهموها رسول الله ﷺ وأمرهم بقراءتها .

قيل: إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض ، وإنما كان أمر إباحه ورخصة ؛ لأن القراءة بها لو كانت فرضاً عليهم لوجب أن يكون العلم بكل حرف من تلك الأحرف السبعة عند من يقوم بنقله الحجة ويقطع خبره العذر ويزيل الشك من قراءة الأمة وفى تركهم فعل ذلك كذلك أوضح دليل على أنهم كانوا فى القراءة بها مخيرين بعد أن يكون فى نقلة القرآن من الأمة من يجب بنقله الحجة ببعض تلك الأحرف السبعة.

فإذا كان ذلك كذلك لم يكن القوم بتركهم نقل جميع القراءات السبع تاركين ما كان عليهم نقله ، بل كان الواجب عليهم من الفعل ما فعلوا ، إذ كان الذى فعلوا من ذلك هو النظر فى الإسلام وأهله ، فكان القيام بفعل الواجب عليهم بهم أولى من فعل ما لو فعلوه كانوا إلى الجناية على الإسلام وأهله أقرب منهم إلى السلامة من ذلك.

فإن قال لنا قائل : فهل لك من علم بالألسن السبعة التى نزل بها القرآن وأىّ الألسن هى من ألسن العرب .

قلنا :أما الألسن التى قد نزل القرآن بها فلا حاجة بنا إلى معرفتها لأننا لو عرفناها لم نقرأ اليوم بها مع الأسباب التى قدمنا ذكرها وقد قيل : إن خمسة منها لعجز هوزان واثنين منها لقريش وخزاعه أهـ .

(٤٣) منع كتابة القرآن بغير الخط العثمانى والسر فى ذلك :

ويقرب من المعنى الذى لأجله قصر الصحابة كتابة المصحف على وجه واحد وترك ما سواه المعنى الذى لأجله منع الفقهاء كتابة القرآن بغير الخط العثمانى ؛ لأن الترخيص فى رسمه بأى خط كان مع كونه مخالفاً لرسم الصحابة وهم أئمة الدين ، وخير من يقتدى بهم ، بل ومخالفاً للتوقيف النبوى كما تقدم أدعى للتحريف والتبديل وتسرب الخلل إلى قراءة القرآن وكتابته لكثرة الخطوط واختلاف أنواعها وأشكالها ، وكلها دون هذه الكتبة متساوية إقدامًا بلا فرق بين كتبة وكتبة فإذا سوغنا الخروج عن الكتبة التوقيفية مع إجماع الصحابة عليها تنوعت كتابة القرآن وتعددت رسومها [1] المتزايدة بتزايد المصطلحين على رسوم الكتابة مدى الأيام ، وذلك أدعى للخلاف والتغيير والتبديل فى رسم القرآن وتلاوته ، وخصوصاً ما كان منها سقيماً معجماً لا يكاد يقرأ ، وهذا ما تقدم فى

---

(١) انظر : رسم المصحف ونقطة من ص ٧٩ وحتى ص ٢٥٥ .

وكذا : الجمع الصوتى الأول للقرآن من ص ٢٨٩ وحتى ص ٣١٥ .

وكذا : الإتقان فى علوم القرآن ص ١٤٥ وحتى ١٥٤ –ج ١ .

التوجيه عند اختصاص إنزال القرآن بأسلوب واحد وهو الأسلوب العربى المعجز مع عموم بعثته ﷺ للكل حيث قالوا : لو تعدد نظم الكتاب المنزل عليه ﷺ حيث تعدد ألسنة الأمم لكان أدعى إلى التنازع واختلاف الكلمة وتطرق أيدى التحريف والتغيير ، فكذلك نظم هذه الكتب المجمع عليها وما احتوت عليه من الأسرار والدقائق مما لا يحتوى عليه رسم آخر لو رخص فى غيرها من الكتبات الأخرى التى لاتقف عند حد، لأدى ذلك إلى التحريف والتغيير فى رسم القرآن وتلاوته ، فوجب الأخذ بتلك الكتبة الأولى واختصاص القرآن برسمها كما اختص الإنزال بالنظم العربى المعجز بحيث لا يجوز الخروج عنها إلى غيرها من رسوم الكتابة الأخرى ، على أنك قد علمت أن هذه الكتبة مستمدة من كتبته ﷺ وكتبها كتَّابها فتعتبر صورة للقرآن القديم ومجلى من مجاليه مشتملاً على أسرار لا يحيط بها إلا اللطيف الخبير ، فالعدول عنها إلى كتبة أخرى كالعدول عن أسلوبه العربى المعجز إلى أسلوب آخر من لغته أو من لغة أخرى.

وقد سئل مالك ﷺ : هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ فقال : لا إلا على الكتبة الأولى [١].

ورواه الدانى فى المقنع ثم قال : ولا مخالف له من علماء الأمة ، وقال فى موضع آخر : سأل مالك عن الحروف فى القرآن مثل : الواو والألف أترى أن تغيرمن المصحف إن وجد فيه كذلك قال : لا ، قال أبوعمرو : يعنى الواو والألف المزيدتين فى الرسم المعدومتين من اللفظ نحو: ﴿ أولوا ﴾ .

وقال الإمام أحمد :

يحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو أوياء أو ألف اوغير ذلك .

قال البيهقى فى شعب الإيمان :

من يكتب مصحفاً فينبغى أن يحافظ على الهجاء الذى كتبوا به تلك المصاحف ولا يخالفهم فيه ولا يغير مما كتبوه شيئاً فإنهم كانوا أكثر علماً وأصدق قلباً ولساناً وأعظم أمانة فلا ينبغى أن نظن بأنفسنا استدراكاً عليهم .

---

(١) انظر : لطائف البيان فى شرح مورد الظمآن للعلامة الخزاز ، شرح العلامة الشيخ أحمد أبوزيتحار ، ط الأزهر وطبع بدار الصحابة .

وحكى بعضهم :

أنه قد أجمع على كتابة المصاحف العثمانية اثنا عشر ألفاً من الصحابة ﷺ فيجب على كل مسلم أن يقتدى بهم وبفعلهم لقوله ﷺ : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم »[1].

وقوله ﷺ : « اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر »[2].

فلزم اتباعهم فما كتبوه بواو فواجب أن يكتب بواو وماكتبوه بغير واو فيجب أن يكتب بغيرها ، وهكذا ، وما كتبوه متصلاً أو منفصلاً فواجب أن يكتب كذلك ، وما كتبوه من التاءات مفتوحا أو مربوطاً فواجب أن يكتب كذلك وقد علمت أن رسم القرآن سنة متبعة وسر من الأسرار الإلهية المختصة فالطاعن فى هجائه كالطاعن فى تلاوته ، والمغير والمبدل فيه كالمغير والمبدل فى أسلوبه ونظمه .

والقاعدة العربية كما فى الإتقان وغيره :

أن اللفظ يكتب بحروف هجائه مع مراعاة الابتداء والوقف عليه ، وقد مهد له النحاة أصولاً وقواعد وقد خالفها فى بعض الحروف المصحف الإمام

****

(١) ضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة حديث رقم :(٥٨ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٨) .

(٢) **حديث صحيح** :رواه أحمد والترمذى [صحيح الجامع (١١٤٢)].

فيجب اتباعه فى كتابة القرآن ، ولا يجوز مخالفته محافظة على حدود كتاب الله تعالى وصيانة له من تطرق الخلل وتحريف الكلم أهـ .

فإنه إذا لم يحافظ على هذا الرسم المجمع عليه من سلف الأمة وخلفها وأبيح رسمه بأى خط كان ، لأدَّى ذلك إلى تحريف القرآن وتغير النطق بحروفه وكلماته وإن صح ، وحفظ لقوم اعتادوا رسومه لا يحفظ لآخرين [1] لم يعتادو تلك الرسوم ، ثم الكتبة الأولى أحق بالإلزام وأولى أن يعتادها الكل فى كتاب الله تعالى دون غيره كتابة وقراءة سداً لهذه الذريعة ، وحماية لجانب القرآن المقدس واتباعاً للسنة وسلف الأمة ، حتى يكون مختصاً بهذه الميزة لا يشاركه فيها غيره من كتب البشر ، فيكون بعيداً فى رسمه عن رسمها ، فما هو بعيد فى نظمه عن نظمها فكما امتاز القرآن فى صدر الإسلام بأصل الكتابة ، واهتمت النبوة بشأنه فأمرت بكتابته ونهت عن كتابة غيره خشية الالتباس والضياع، ينبغى أن يمتاز بشكل من أشكال الكتابة لا يزاحمه فيه غيره ، ولا شك أن أحق الأشكال بالاتباع شكل الرسم المأثور عنه ﷺ واتفق عليه الصدر الأول وأمر الصحابة به .

(وكل خير فى اتباع من سلف ..... وكل شر فى ابتداع من خلف)

****

---

(١) لطول العهد مثلاً أو لاختلاف المصر أو غيره .

(٤٤) يجب المبادرة بإصلاح ما كتب من القرآن بغير الرسم العثمانى أو غسله :

ولقد أحدث الناس خطوطاً كثيرة وطبعت مصاحف برسوم مختلفة وخطت بأيدى جهلة لا يفقهون قواعد الرسم[1] ولا يعرفون أصول الكتابة فمثل هؤلاء لا يعبأ بهم ولا يعول على رسمهم ، بل يجب على الأمة إذا رأوا مصحفاً مطبوعاً أو مخطوطاً مخالفاً للرسم الأصلى أن يبادروا بإصلاحه أو حرقه أو غسله ، كما أنه يجب على من رأى لحناً فى مصحف زيادة أو نقصاً أن يبادروا بإصلاحه ويعد إثما بتأخيره .

وبالجملة فالواجب على الأمة الأخذ بالكتبة الأولى واتباع رسومها مع مافيها من مخالفة القياس الخطى ، فإن الخط العثمانى لا يقاس ولا يقاس عليه إذ لا يدخله النظر والاجتهاد وقد تقدم أن فيه شيئاً من التوقيف إن لم يكن بوحى ظاهر فبوحى باطن لا مرية فيه ، وقد جعلت المصاحف العثمانية طريقاً لتعميم ثبوت القرآن وسداً لذريعة ما عساه أن يقع بين الناس من النزاع فى القراءة، وخصوصاً فى الجهات النائية عن مقر الشيوخ الحافظين الضابطين الذين يرجع إليهم فى كيفية

---

(١) خاصة بعد إمكان الكتابة على أجهزة (الكمبيوتر) الحديثة وعدم إجازة أى مصحف إلا بعد ترخيص لجنة مراجعة المصاحف بمجمع البحوث الإسلامية .

النطق والأداء فكان وجودها بين الأمة إذ ذاك بمنزلة طبقات الشيوخ فى الجهات، بل وجود كل مصحف عثمانى فى جهة بمثابة وجود طبقة الصحابة الذين رسموه، وأجمعوا على اتباعه وسلوك منهجه وكل ما نقل منه على رسمه أو كتب على قاعدته فهو بمثابته إذ ليس المقصود اتباع عين الكتبة الأولى إذ هى مما يبلى ويزول ، وإنما المقصود نوعها والمحافظة على أشكالها ورسومها ، وكثيراً ما توافق الرسم العرفى ، وقد تخالفه فى مواضع مخصوصة وكلمات محصورة معدودة تصدى لجمعها وبيان مناسباتها ووجه اختلاف رسمها بقدر المستطاع كثير ممن عنوا بفن الرسم العثمانى ، ومعرفة دقائقه منها :

قوله تعالى : ﴿ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ ﴾ بياءين بين الألف والدال .

وقوله تعالى : ﴿ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ بياء بعد ألف من ﴿ نبأ ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ من ملئيه ﴾ و ﴿ من ملئيهم ﴾ بياء قبل الهاء فيهما .

فهذا ونحوه مما يجب اتباعه فى كتابة المصاحف القرآنية اقتداءاً بالصحابة - رضوان الله عليهم - أما فى غيرها فيكتب ﴿ بأيد ﴾ بياء واحدة لأن الهمزة فيه أول كلمة فتصير ألفاً كغيرها من الهمزات الواقعة أولاً وهكذا وتكتب تاء التأنيث فى نحو : ﴿ رحمة ، ونعمة ، وقسمة ﴾ بالهاء لأن الوقف عليها بالهاء على الصحيح ، وبعضهم يقف عليها بالتاء وهى لغة قليلة فتكتب بالتاء موافقة

للوقف بلا فرق بين موضع وموضع ، بخلاف ذلك فى رسم المصحف الكريم، فإنها تكتب بالتاء فى مواضع وبالهاء فى مواضع أخرى [١] كما بينها ابن الجزرى فى منظومته وبالجملة فعلم الرسم الخلفى علم واسع وصناعة دقيقة .

(٤٥) علم الرسم السلفى ورسوخ الصحابة فيه :

وأوسع منه وأدق علم الرسم السلفى وهو رسم المصحف (الإمام) ومن تأمل في رسمه وما اشتمل عليه من الأسرار والدقائق علم أن الصحابة كانوا أعرف الناس بهذا الفن [٢] خصوصا الذين كتبوا القرآن الكريم ، وإن كان بعض حروفه بالإملاء والتلقين منه ﷺ .

وفى روح المعانى للألوسى :

والظاهر أن الصحابة كانوا متقنين رسم الخط ، عارفين ما يقتضى أن يكتب وما يقتضى أن لا يكتب ، وما يقتضى أن يوصل وما يقتضى أن لا يوصل، إلى غير ذلك ، لكن خالفوا القواعد فى بعض المواضع لحكمة .

---

(١) راجع باب : الوقف على مرسوم الخط فى كتب القراءات .

(٢) انظر : رسم المصحف ونقطه من (ص ١٠٥ -٤٣٣)، وكذا تاريخ القرآن (ص ٣٧).

ويستأنس لذلك ما أخرجه ابن الأنبارى فى كتابه (التكملة) عن عبد الله ابن فروخ قال :

قلت لابن عباس : يا معشر قريش أخبرونى عن هذا الكتاب العربى هل كنتم تكتبونه قبل أن يبعث الله تعالى محمد ﷺ تجمعون منه ما اجتمع وتفرقون منه ما افترق مثل : الألف واللام والنون ، قال : نعم قلت : وممن أخذتموه قال : من حرب بن أمية قلت : وممن أخذه حرب قال : من عبد الله بن جدعان قلت : وممن أخذه عبد الله بن جدعان ، قال : من أهل الأنبار قلت : وممن أخذه أهل الأنبار قال : من طارئ طرأعليهم من أهل اليمن قلت وممن أخذ ذلك الطارئ قال من الخلجان بن القسم كاتب الوحى لهود النبى عليه السلام أهـ[1] .

وفى كتاب (محاورة الأوائل ومسامرة الأواخر) أن أول من اشتهر بالكتابة فى الإسلام من الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وأبى بن كعب وزيد بن ثابت ، والظاهر أنهم لم يشتهروا فى ذلك إلا لإصابتهم فيها ، والقول بأن هؤلاء الأئمة وسائر الصحابة لم يعرفوا مخالفة رسم الألف أى فى قوله تعالى: ﴿ لأذبحنه ﴾ بزيادة الألف لما يقضيه قوانين أصل الخط وكذا سائر ما وقع من المخالفة مما لا يقدم عليه من له أدنى أدب وإنصاف.

---

(١) انظر روح المعانى (١٩ / ٨٥) .

يشير بذلك إلى رد ماذكره ابن خلدون فى مقدمته ، ونقله عنه فى صدر عبارته فراجعه ، وقوله : لكن خالفوا إلخ ظاهره أن ذلك كان باجتهاد منهم، وقد علمت أن رسم القرآن خارج عن النظر والاجتهاد ، وأن منه ما لا يدرك سره إلا من نزل عليه الكتاب ، وإن بعضه بالوحى والتوقيف وبعضه بالصناعة والتعليم .

****

(٤٥) أنواع الكتابة وأصل الخط العربى[1] :

وذكر ابن خلدون وغيره من أنواع الكتابة اثنا عشر نوعاً وهى :

الحميرية والقبطية والبربرية والأندلسية واليونانية والهندية والصينية والرومية والسريانيه والفارسية والعبرية والعربية .

وقال ابن اشتة فى كتاب المصاحف بسنده عن كعب الأحبار:

أن أول من وضع هذه الأنواع آدم عليه السلام كتبها فى طين وأحرقه و دفنه قبل موته بثلاثمائة سنة ، وبعد الطوفان أصاب كل قوم كتاباً فتعلموه بإلهام، ونقلوا صورته ، واتخذوه أصل كتابهم ، وبقى الكتاب العربى حتى خص الله به إسماعيل عليه السلام، فأصابه ، وهو أول من تكلم بالعربية إلهاما من الله تعالى .

---

(١) انظر : تاريخ القرآن الدكتور عبدالصبور شاهين ص ١١٧ .

وكذا : رسم المصحف ونقطه من ص ١٦٣ وحتى ص ١٦٧ ـ ط دارنور المكتبات للفرماوى.

وكذا : تاريخ المصحف للعلامة القاضى ص ٧ ، ط المطابع الأميرية .

وكذا : المتحف فى رسم المصحف للدكتور عبدالكريم صالح .

وكذا : القراءات المتواترة وأثرها فى الرسم القرآنى والأحكام الشرعية للدكتور محمد الحبشى من ص ١٠٣ وحتى ١١٦ ، ط دار الفكر .

وكذا : المتحف فى أحكام المصحف للدكتور صالح الرشيد من ص ٩٩٥ ، ط مؤسسة الريان.

وفى صبح الأعشى[1] :

عن ابن عباس رضي الله عنهما إن أول من وضع الحروف العربية ثلاثة رجال من بولان - قبيلة من طيء- نزلوا مدينة الأنبار وهم : مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة ، اجتمعوا فوضعوا حروفا مقطعة وموصولة ، ثم قاسوها على هجاء السريانية ، فأما مرامر فوضع الصور ، وأما أسلم ففصل ووصل ، وأما عامر فوضع الإعجام ثم نقل هذا العلم إلى مكة ، وتعلمه من تعلمه ، وكثر فى الناس وتداولوه .

وقضية هذا أن الإعجام موضوع مع وضع الحروف ، وروى أن الصحابة رضوان الله عليهم جردوا المصحف من كل شيء حتى من النقط والشكل .

****

(١) صبحى الأعشى (٣/ ١١) .

(٤٦) نقط المصاحف وشكلها ووضع الفواصل بين رءوس الآى :

وروى أن أول من نقط المصاحف ووضع العربية أبو الأسود الدؤلى من تلقين على كرم الله وجهه، وأما الشكل فقيل : أن أول من بَدَأبه فى المصحف أبو الأسود، وقيل : هو نصر بن عاصم الليثى وهو الذى جمعه وعشَّره، وقيل: هو يحيى بن يعمر وهو من أجلة تابعى البصريين أكثر العلماء على أن أبا الأسود جعل الحركات والتنوين لاغير، وأن الخليل بن أحمد هو الذى جعل الهمز والتشديد .

وقد رخص فى نقط المصاحف وشكلها بالإعراب جماعة منهم : ربيعة ابن عبد الرحمن وابن وهب، وصرح الشافعى بأنه يندب نقط المصحف وشكله، أما تجريد الصحابة له من ذلك فكان حين ابتداء الجمع حتى لايدخل بين دفتى المصحف شيء سوى القرآن، ولذلك كرهه من كرهه أهـ . ملخصا من الجزء الثالث .

ولا يعد مثل ذلك إخراجا للكتبة الأولى عن نوعها المطلوب، فإن النقط والشكل إضافة هيئة لها مع بقاء أصلها كما هو لزيادة الضبط والبيان، وقد يعد

مثل ذلك من التفسير ، فقد عرفوه بما يشمل بيان كيفية النطق بالقرآن ، وكذلك وضع الفواصل [١] بين رءوس الآى ، ورموز أحكام الوقف والابتداء.

على أن تجريد المصاحف من النقط والشكل إنما كان للاستغناء عنها بمعرفة رسم الحروف المعجمة والمهملة ، وتمييز كل منها عن الآخر وبسلائقهم الغنية عن بيان الإعراب ، أما بعد فساد الألسن واختلاف الرسوم وتشابه أوضاع الحروف ، فقد توفرت الدواعى للنقط والشكل، وأصبح ذلك فى القرآن أمراً لازما ، وعلى ذلك جرى المسلمون فى طبع المصاحف وكتابتها ، وأنها بحمد الله تعالى ومزيد فضله على الإسلام والمسلمين خالية من التبديل والتحريف وأعد لها خطا ورسماً وأقومها ضبطاً وصيانة فى زمننا هذا بل وقبله بقرون :

المصحف الشريف الذى طبع الآن بمصر فى عهد صاحب الجلالة ملك مصر فؤاد الأول [٢] .

وقد جاء فى تعريفه :أنه كتب وضبط على ما يوافق رواية حفص بن سليمان بن المغيرة الكوفى لقراءة عاصم بن أبى النجود عن أبى عبد الرحمن

---

(١) انظر : (نفائس البيان فى عدّ آى القرآن) للقاضى ، وكذا (بشير اليسر) للشاطبى .

وأيضاً : (الفواصل) للدكتور حسين نصار .

(٢) زمن تأليف الكتاب ١٣٤٣هجرية ، ١٩٢٥ ميلادية .

السلمى عن عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وزيد بن ثابت وأبى بن كعب عن النبى ﷺ

وأخذ هجاؤه مما رواه علماء الرسم عن المصاحف التى بعث بها إلى البصرة والكوفة والشام ومكة والمصحف الذى جعله لأهل المدينة والمصحف الذى اختص به نفسه وعن المصاحف المنتسخة منها .

وقد قام بتصحيحه ومراجعته على أمهات كتب الرسم والضبط والقراءات مراجعة دقيقة الأستاذ الشيخ محمد بن على بن خلف الحسينى شيخ المقارئ المصرية وهو الذى كتبه بخطه والأستاذ حفنى بك ناصف المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف العمومية والأستاذ الشيخ مصطفى عنانى والشيخ أحمد الأسكندرانى المدرسان بمدرسة المعلمين الناصرية ، والأستاذ الشيخ نصر العدلى رئيس المصححين بالمطبعة الأميرية تحت إشراف المشيخة الأزهرية الجليلة .

وقد وفق الله تعالى - جلت قدرته - فتم طبع هذا المصحف الكريم فى اليوم السابع من شهر ذى الحجة لسنة اثنين وأربعين وثلثمائة وألف من هجرة خاتم النبين والمرسلين فى عهد حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأوَّل ملك مصر المعظم ، الذى وجه عنايته السامية إلى إنجازه وإتقانه، تعجيلاً للفائدة المرجوة والغاية المبتغاة من نشره فى العالم الإسلامى ، وابتغاء لحسن المثوبة من

الله سبحانه ولجميل مرضاته فأنجز طبعه على أحسن مايرام من الإتقان والإحكام فى عهد جلالته المبارك وعصره السعيد، فجزى الله العاملين فى رسمه والساعين فى طبعه ونشره أحسن الجزاء وياحبذا لو وفق ولاة الأمور فى منع طبع المصاحف الشريفة فى القطر المصرى إلا على هذه الكتبة الحرة حتى يتوحد المصحف الشريف ويمتاز برسم يخصه ويظهر القرآن الكريم فى هذه الصورة المأثورة عن الصحابة وسلف الأمة [١] محفوظا من التغيير والتبديل، وأن يطبع منه عدد وافر ويبعث بجانب منه إلى البلاد الإسلامية، وينصح إلى أهل كل جهة بوجوب اتباعه والأخذ برسمه فيما يخطون ويطبعون وترك ماسواه من المصاحف التى لم تكن على هذه الكتبة.

كما صنع عثمان رضي الله عنه حيث كتب عدة مصاحف وأرسل منها إلى الجهات وأمر باتباعها والقراءة عليها وترك ماسواها من الصحف الأخرى، لو صنعوا ذلك لنصحوا لكتابهم وأحيوا سنة رسولهم ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين من بعده ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا.

****

---

(١) وهذا من تمام النعمة علينا والحفظ لكتاب الله تعالى وهو القائل:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ (الحجر: ٩).

(٤٧) النصيحة لكتاب الله تعالى :

وقد ذكر العلماء كما قاله النووى [١] :

أن من النصيحة الواجبة لكتاب الله تعالى تعظيمه وتلاوته حق تلاوته وإقامة حروفه والذبِّ عنه لتأويل المحرفين وتعرض الطاعنين والتصديق بما فيه والوقوف مع أحكامه وتفهم علومه وأمثاله والإعتبار بمواعظه والتفكر فى عجائبه والعمل بمحكمه والتسليم بمتشابهه والبحث عن عمومه وخصوصه ومنسوخه ونشر علومه والدعاء إليه وإلى ما ذكرناه من نصيحته أهـ .

ولا شك أن التزام هذه الكتْبة السلفية مما يؤدى إلى إقامة حروفه وتلاوته حق تلاوته ، ولله الحمد قد عُنِىَ المسلمون بكل هذه النصائح ولا يزال القرآن مضبوطا بالكتابة محفوظا بالرواية والتلقى عن الثقات الضابطين خلفا عن سلف ، وفى المسلمين بكل الأقطار وخاصة بالقطر المصرى عدد عظيم من الحفاظ والقراء .

---

(١) التبيان فى آداب حملة القرآن (١٢١) ط دار الصحابة .

(٤٨) حفظ القرآن وصيانته من التحريف :

ولا يزال القرآن كذلك محفوظاً إلى يوم الدين تحقيقاً لوعد الله الذى لايخلف وعده ، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، قال الله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩) .

أى : من كل مايقدح فيه من زيادة ونقص أو تحريف أو تبديل ولم يحفظ الله تعالى كتابا من الكتب السماوية كما حفظ القرآن الكريم ، بل استحفظها - جل وعلا - الربانيين والأحبار ، وحملهم عبئها وألزمهم أمانتها فوقع فيها ما وقع من التبديل والتغيير ، وتولى سبحانه حفظ القرآن وصيانته ليبقى آية ناطقة بالحق وحجة قائمة على العالمين أبد الدهر ومعجزة دائمة لخاتم النبين إلى يوم الدين ومن تمام حفظه حفظ سنة النبى ﷺ لأنها مبينة له كما قال تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (النحل: ٤٤) .

مرغبة فى حفظه والتعبد بتلاوته ناهية عن نسيانه وتركه .

فقد أخرج الإمام مسلم :

من حديث أبى أمامة : « اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ» [1].

وفى الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما :

« لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ » [2].

وروى الترمذى من حديث بن مسعود رضي الله عنه :

« من قرأحرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها » [3].

وعن أنس رضي الله عنه مرفوعا :

« نوروا منازلكم بالصلاة واقرأوا القرآن » [4].

---

(١) حديث صحيح : رواه مسلم حديث رقم (١٣٣٧) .

(٢) صحيح : رواه البخارى ورواه مسلم واللفظ له حديث رقم (١٣٥٠) .

(٣) حديث صحيح : رواه الترمذى (٢٩١٠) [صحيح الجامع الصغير (٦٤٦٩)] .

(٤) ضعيف : رواه البيهقى فى شعب الإيمان [ضعيف الجامع الصغير (٥٩٧٥)] .

وصرح النووى فى الروضة وغيرها بأن نسيانه كبيرة لحديث أبى وغيره «عرضت على ذنوب أمتى فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها »(١).

وفى الصحيحين :

« تعاهدو القرآن فوالذى نفسى بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل فى عقلها »(٢).

انظر تمامه فى الإتقان .

(٤٩) حفظ السنة النبوية :

وقد تصدى لحفظ السنة النبوية وضبط رواتها وترتيب أبوابها رجال ثقات من أئمة الدين ، وهم طائفة المحدثين ، خلفاً عن سلف إلا أنها لم تكن فى عصر الصحابة وكبار التابعين مدونة ولا مرتبة الأبواب كما هى عليه الآن، لاستغنائهم عن تدوينها إذ ذاك لقوة الحفظ وصفاء الذهن ورسوخ الملكة وحضور الذاكرة ، فكانت صدورهم أناجيلهم ، يرجعون إليها كما يرجع الإنسان إلى الكتب .

---

(١) ضعيف : رواه أبو داود (٣٩٠) ، ورواه الترمذى (٢٨٤٠) [ضعيف الجامع الصغير (٣٧٠٠)].

(٢) متفق عليه : رواه البخارى (٤٦٤٥) ، ورواه مسلم (١٣١٧) .

ولأنهم كانوا قد نهوا أولا عن كتابتها ميزة للقرآن وخشية أن يتكلو على الكتابة فتضيع فضيلة الحفظ والضبط المتوفرة فى نفوسهم تمام التوفر، فلما كان زمن عمر بن عبد العزيز على رأس المائة، وتنوعت الألسن وقصرت الأفهام، وتساهل الناس فى الرواية والحفظ أمر بتدوين الحديث.

فأول من دونه بأمرعمر بن عبد العزيز الشهاب الزهرى، وأما الجمع مرتبا على الأبواب فوقع فى نصف القرن الثانى فأول من جمع ذلك ابن جريربمكة ومالك وابن إسحاق بالمدينه وهشام بواسط ومعمر باليمن وابن المبارك بخراسان والربيع بن صبيح وسعيد بن أبى عروبة وحماد بن أبى سلمة بالبصرة، وسفيان الثورى بالكوفة، والأوزاعى بالشام، وجرير بن عبد الحميد بالريِّ، وكل هؤلاء كانوا فى عصر واحد فلايدرى أيهم أسبق كما قال الحافظ العراقى والحافظ بن حجر.

****

(٥٠) رفع العلم فى آخر الزمان :

وبالجملة فالعلماء القائمون بحفظ العلوم الشرعية وتدوينها قائمون بحفظ الكتاب والسنة ، وكلها لا تزال محفوظة بين الأمة مصونة عن اللبس والدخل إلى أن يرفعه الله تعالى من الصدور والكتب آخر الزمان قبل يوم القيامة كما جاء فى كثير من الأخبار .

فقد أخرج البيهقى والحاكم وصححه وابن ماجة بسند قوى عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ :

« يدرس الإسلام كما يدرس وشى الثوب حتى لايدرى ما صيام ولا صدقة ولا نسك ويسرى على كتاب الله تعالى فى ليلة ، فلا يبقى فى الأرض منه آية ، ويبقى طوائف من الناس و الشيخ الكبير والعجوز يقولون : أدركنا أباءنا على هذه الكلمة لا إلا الله فنحن نقولها »[1] .

---

(١) صحيح : رواه ابن ماجه (٤٠٣٩) ، وروواه الحاكم (٨٥٩٥) ، ورواه البيهقى فى شعب الإيمان (١٩٦٩) ، [حديث رقم (٨٠٧٧) في صحيح الجامع] .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن عمر قال: خطب رسول الله ﷺ فقال:

« يا أيها الناس ماهذه الكتب التى بلغنى أنكم تكتبونها مع كتاب الله تعالى، يوشك أن يغضب الله تعالى لكتابه، فيسرى عليه ليلاً لا يترك فى قلب ولاورق منه حرفاً إلا ذهب به فقيل: يارسول الله فكيف بالمؤمنين والمؤمنات قال من أراد الله تعالى به خيراً أبقى فى قلبه لا إله إلا الله »[1].

وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن أبى هريرة قال:

« يسرى على كتاب الله تعالى فيرفع إلى السماء فلا يبقى فى الأرض آية من القرآن ولا من التوراة والإنجيل والزبور فينزع من قلوب الرجال فيصبحون فى ضلالة لا يدرون ماهم فيه »[2].

---

(١) رواه الطبرانى فى معجمه الكبير حديث رقم (٥٨٧) وفى معجمه الأوسط حديث رقم (٧٧٢٧).

(٢) رواه الحاكم فى مستدركه حديث رقم (٨٦٨٦).

وأخرج الديلمى عن ابن عمر مرفوعا :

« لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث جاء له دوى حول العرش كدوى النحل فيقول الله عزوجل : ما لك فيقول : منك خرجت وإليك أعود أتلى ولا يعمل بى » [١].

وأخرج محمد بن نصر نحوه موقوفاً على عبد الله بن عمرو بن العاص

وأخرج غير واحد عن ابن مسعود أنه قال :

سيرفع القرآن من المصاحف والصدور ثم قرأ :

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾ (الإسراء: ٨٦)

وفى البهجه أنه يرفع أولا من المصاحف ثم يرفع لأعجل زمن من الصدور والذاهب به هو جبريل عليه السلام كما أخرجه ابن أبى حاتم من طريق القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن جده .

فيالها من مصيبة ما أعظمها وبلية ما أوخمها .

---

(١) عزاه المتقى الهندى فى كنز العمال حديث رقم (٣٨٥٢٧) إلى الديلمى عن ابن عمر .

انظر الألوسى [١] فى تفسير قوله تعالى :

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ (الإسراء :٨٦ ، ٨٧) .

وقد أخذ القرآن بل والسنة وعلوم الشريعة فى الرفع من الآن ، فإن عامة الناس بل وخاصتهم من العلماء قَلَّ من يعنى منهم بحفظ كتاب الله وسنة رسوله ، والمشتغلون بتعلم القرآن من أولاد المسلمين أصبحو الآن فى غاية القلة [٢] .

ذكر القرطبى :

أن رفع القرآن على هذه الكيفية الواردة فى الأحاديث إنما يكون بعد موت عيسى عليه السلام وهدم الحبشة الكعبة فلاحول ولا قوة إلا بالله .

****

(١) روح المعانى (١٥ / ١٦٥) .

(٢) هذا الكلام كان زمن المؤلف رحمه الله أما الآن فقد انتشر والحمدلله الحفظه وكثرت معاهد تعليم القرآن الكريم وكذلك المسابقات لحفظ القرآن الكريم .

الفَصْلُ الرَّابِعُ

حكم ترجمة القرآن وقراءته وكتابته بغير اللغة العربية

حكم ترجمة القرآن وقراءته وكتابته بغير اللغة العربية

تقدم فى المقالة الثانية أن أنواع قراءة القرآن باللغة العربية أربعة ، وأن ما ثبت من القرآن بالتواتر أو الشهرة يقرأ به إجماعاً ، وما ثبت آحاداً أو شذوذاً لا يقرأ به كما تقدم جمعه وكتابته بالخط العثمانى فى الفصل الثالث .

وأما قراءته وكتابته بغير اللغة العربية أية لغة كانت فمتفرع على ترجمته إذ ما لم يترجم بغير لسانه العربى لا يكتب ولا يقرأ بلسان آخر فالترجمة هى الوسيلة إلى قراءته وكتابته بغير العربية .

(١) الترجمة :

واعلم أن الترجمة تطلق لغة وعرفاً على :

تفسير الكلام بلغة أخرى ، أى : بيان معناه بلسان آخر وعلى مجرد نقله من لغة إلى أخرى بدون بيان ، كوَضْعِ رديفٍ موضعَ رديفٍ من لغة واحدة كما يقال فى : الغضنفر الأسد وفى المهمه : المفازة .

ففى القاموس وشرحه تاج العروس : والترجمان المفسر للكلام وقد ترجمه وترجم عنه ، إذا فسر كلامه بلسان آخر ، قاله الجوهرى .

وقيل : نقله من لغة إلى أخرى انتهى .

واقتصر فى اللسان على الثانى حيث قال : والترجمان المفسر للسان وهو الذى يترجم الكلام أى : نقله من لغة إلى لغة أخرى ولعله أراد به ما يعم تفسيره وبيان معناه فيشمل المعنيين .

وعلى كل حال فالترجمة تقع تارة مع بيان المعنى فتكون تفسيراً وشرحاً بلغة أخرى وتارة بدونه فلا تكون كذلك، والأول صناعة معنوية بيانية فإن المفسر والتفسير فى اللغة كشف المغطى وبيان المراد من اللفظ أو كشف المعنى المعقول كما فى البصائر فهى واقعة على المعنى بالذات ، ولذا يقال لها الترجمة المعنوية ، والأخرى صناعة لفظية بحتة واقعة على اللفظ بإبداله بلفظة أخرى من لغة أخرى ولذا يعبر عنها بالترجمة الحرفية ولا تعدو الترجمة الحالية هذين النوعين .

وكيفما كانت الترجمة فإنها تتوقف على فهم أوضاع الذاتين ومعرفة أسرار اللغة المترجم منها ، وخصائصها ، وآدابها ، ومناحى دلاتها ، ومرامى إشاراتها ، ومعرفة ما يماثل ذلك فى اللغة المترجم إليها حتى يمكن تفسير الجملة المترجمة أو إبدال ألفاظها بما يطابقها ويحكى صورتها ، ويحفظ عرضها ، ويفى بمعناها دون أن يتسرب إليها الخطأ من جهة الوضع والأسلوب ، فإن اللغة كثيراً من الألفاظ المشتركة[١] تدل على معانى متباينة ولدلالة ألفاظها وتراكيبها على المعانى المقصودة وجوه مختلفة فمن تشبيه إلى مجاز إلى كناية ، وفى كل ذلك تفاوت

---

(١) فى جملها وتراكيبها بصيغها المختلفة .

ومراتب فى الحسن والقبول، ولكل كلمة مع قرينتها موقع لا يحسن مع أخرى وائتلاف لا يوجد فى تركيب آخر .

وفَهْمُ ذلك والاقتدارُ عليه لا يناله إلا من راض [١] نفسه فى متن اللغة وأساليبها مع الذوق السليم والطبع المستقيم ، وتهيئ الأسباب الصحيحة والناس فى ذلك متفاوتون وفى مراتبه متباينون .

ولذلك ترى العدد العديد من المضطلعين بترجمة الكتب يعالجون ترجمة كتاب واحد فيخرجون إلى الناس تراجم مختلفة فى ألفاظها وأساليبها ومعانيها وتحديد أغراض الأصل المترجم والإحاطة بمقاصده ، حتى لتكاد تحكم بأنها لم تصدر عن مورد واحد .

وهذه رباعيات عمر الخيام [٢] ترجمها من الفارسية إلى العربية ، وأتى غيرها من اللغات الأخرى كثير من المترجمين ، ولكل ترجمة غرض وأسلوب ولا يزال المترجمون إلى الآن مختلفين فى مرامى الخيام ، وفهم كلامه وتصوير حالته النفسية ونزعته الخلقية والاجتماعية ، وكل ذلك إما لنقص فى المترجم أو لفقد لغة الترجمة

---

(١) بمعنى : روَّض ومرَّن و درَّب .

(٢) قصيدة مشهورة ومنها :

يا عالم الأسرار علم اليقين — يا كاشف الضرِّ عن البائسين

يا قابل الأعذار فئنا إلى — ظلك فاقبل توبة التائبين

بعض خصائص ومزايا اللغة المترجم منها فلا تنهض العبارة بأداء الغرض المقصود ولا تلم أطراف المرمى.

ولكل لغة حية آداب وخصائص وأدوات لإفادتها والتعبير عنها والإشارة إليها والتلميح لها، لا يوجد ما يوازيها تماماً في اللغة الأخرى بل قد يكون في بعضها من الآداب والمزايا ما تنكره عليها الأخرى، وتعده إسفافاً في التعبير وسخافة في المعنى، وبالضرورة لا يوجد لديها مع هذا الإنكار ما يحكيها ويصورها بحيث تكون الترجمة وافية بالغرض ملمة بالمعنى غير تاركة منه قليلاً ولا كثيراً.

ولا يسع أحداً أن يدّعى اتساع لغة من اللغات الحية بحيث تحتوى لغة أخرى بجميع أوضاعها، وخصائصها ومزاياها وآداب أهلها، وأذواقهم فى التعبير والشعور بالمعانى، فلا غرابة إذا اختلف المترجمون، وتفاوتت التراجم بالزيادة والنقص والتعبير، ومع ذلك فأتم التراجم وأكملها ما كانت أدنى إلى حفظ خصائص الأصل وأغراضه مع وضوح الدلالة وسلاسة الأسلوب.

وقد رأيت بعد هذا كلمة للدكتور (جوستاف لوبون) فى كتابة : (سر تطور الأمم) تعريب المغفور له (بإذن الله تعالى) : (زغلول باشا) :

بين فيها أن العناصر الأولية التى تتكون منها مدنية أمة من الأمم خاصة بتلك الأمة وأنها خلاصة معقولها [١] ولا تحتمل الانتقال منها إلى غيرها بدون تحوير كثيرٍ ومن ذلك اللغة فإنها تتغير متى انتقلت من أمة إلى أخرى بحسب حاجاتها ومزاجها العقلى ثم قال :

(وإذا اختلفت الأمم اختلفت معانى الألفاظ وإن كانت متقابلة كأنه لا ترادف وتعذرت ترجمة إحدى اللغتين إلى الأخرى) أ . هـ .

وفى هذا ما يتفق مع ما قدمناه من أن محاكاة لغة لأخرى فى أوضاعها واستعمالاتها متعذر ، وأن الترجمة لا يمكن أن تماثل المترجم من كل الوجوه ولا تخلو من تصرف وتغيير وتبديل ، وذلك أن جاز اغتفاره فى كلام البشر لا يجوز فى كلام الله القديم الذى فى طياته معان ومقاصد لا تكاد تحصى وفى نظمه وأسلوبه ما لا يستطيع إنسان مباراته ومجاراته .

---

(١) من استنتاجات وأفكار ودلائل حيَّة .

(٢) ترجمة القرآن :

وترجمة القرآن ترجمة حرفية بأية لغة لا يعقل أن تكون بالإتيان بمثله فى طلاوة نظمه ، ورقة أسلوبه ، وبداعة تركيبه ، وانسجام آياته ، واتساق نظمه ، وجمال استهلاله ، وحسن مقاطعه ، وغرابة فواصله مهما دقت الترجمة وسمت واضطلع المترجم بنظم القرآن وأسلوبه فإنه لا يسعه الاحتفاظ بهذه المزايا بالخصائص البلاغية والأغراض البيانية من مثل التقديم والتأخير والذكر والحذف والفصل والوصل والإيجاز وضده والتأكيد وعدمه مما لا يحسن لونه ولا يجمل وضعه ولا يروق وقعه إلا بالعربية الفصحى .

فليس فى متناول القدرة (١) أن يأتى إنسان بما يماثل القرآن الكريم (٢) فى ذلك وقد بلغ من البلاغة الذروة ومن الفصاحة الغاية ، وحتى أعجز بنظمه وأسلوبه ذوى اللسن والبيان من أئمة اللغة وفرسان البلاغة وأعلام البراعة .

بل هذه المزايا أول ما يفقد بالترجمة الحرفية المثلية وإذا كان فصحاء العرب وبناة اللغة لا يزالون من وقت نزول القرآن إلى الآن يَجِدُّون فى المسير إلى قراره

---

(١) مهما عظمت أو قَوِتْ .

(٢) ولو بحرف قال الله تعالى :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الإسراء: ٨٨) .

واستكناه أسراره ويمعنون فى تعرف حكم نظمه ولم يستشرفوا الغاية ولا زالوا بُعَيْدَ البداية فما بالك بالغرباء من لغته الدخلاء فى عربيته يعانون الإتيان بمثله :

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

(الأعراف: ١٣٩).

وأن معاناة ذلك فى القرآن الكريم بأية لغة وعلى أية حالة من التصرف المحّل بأسرار دلالته ، الذاهب بوجه من إعجازه ، والتعبد بتلاوته وهو من أخص خصائصه.

ولو كان نظم الترجمة يحاكى نظم القرآن ويماثله لما تمت آية التحدي وتعجيز بلغاء العرب المرتابين فيه عن الإتيان بمثله وقد قال تعالى :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

(الإسراء : ٨٨) .

وقد أتم الله هذه الآية وصدّق الخَبَرُ الخَبَرَ حيث حاول بعض البلغاء محاكاة النظم بجُمَلٍ زوَّروها وسُوَرٍ حاكوها فكانت سخفاً من القول وزوراً :

مَرَامٌ شطَّ مرمى العقلِ فيه ... ودُونَ مَـدَاه بِيـدٌ لا تَبِيـدُ

ويقرب من ذلك ما أشار إليه القاضى عياض فى كتابه (الشفاء) حيث قال :

وها هم الفصحاء من العرب أئمة البلاغة وفرسان الكلام وجهابذة البراعة، وأرباب الألفاظ الناصحة ، والكلمات الجامعة والطبع السهل ، قد خصوا من البلاغة ما لم يخص به غيرهم من الأمم ، وأوتوا من ذرابه اللسان ما لم يؤت إنسان ومع ذلك نكصوا عن معارضته ، وأحجموا عن مماثلته ، ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة الكذاب كشف عواره لجميعهم وسلبهم الله ما ألفوه من فصيح كلامهم وارتدوا على أعقابهم خائبين وتجرعوا كأس الصغار باهتين مرذولين [١] . أ هـ .

فكيف يستطال على هذا النظم البديع بترجمة تشوه جماله وتذهب بهاءه وتنقص أحكامه :

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ (النور: ١٦) .

---

(١) الشفاء للقاضى عياض (١ / ١٩٧) .

وجملة القول :

أن ترجمة القرآن حرفية بالمثل غير معقولة ولا مقدورة وليست محل اختلاف بل محل اتفاق على عدم إمكانها فضلا عن وقوعها .

وإنما محل البحث هو ترجمة القرآن الكريم ترجمة حرفية بدون المثل فهى المراد من قول العلماء :

لا تجوز ترجمة القرآن الكريم وقراءته وكتابته بغير العربية دون الترجمة التفسيرية فإنها جائزة قطعاً بالشرط الآتى بيانه ودون الترجمة الحرفية بالمثل فإنها كما علمت غير معقولة ولا مقدوره.

والفرق بين الترجمة الحرفية والتفسيرية :

عملاً وقصداً ظاهر جلى .

فإن صناعة الأولى تكون : باستحضار معنى لفظ الأصل المترجم وإبداله بما يدل عليه من اللغة الأخرى حسبما تقتضيه أوضاعها وقواعدها .

وصناعة الثانية تكون : بفهم معنى الأصل وشرح غامضه وتوضيح خافيه، وتفصيل مجملة بألفاظ وجمل تدل على ذلك من اللغة الأخرى ، فالترجمة فى هذا النوع ليس ترجمة للفظ الأصل بل لمعناه وشرحه وتفسيره والمترجم تفسير الأصل ومعناه المشروح ، لا نفس الأصل ، ولذا يجب أن تكون عبارة الترجمة

محاذية[١] ومطابقة لعبارة التفسير المترجم ، بحيث لا تختلف عنها إلا فى أن هذه بلغة وتلك بلغة أخرى ، وبذلك يتضح أن اعتبار هذه الترجمة التفسيرية ترجمة للأصل تساهل فى التعبير وتجوز فى الاستعمال .

وكذلك تختلف الترجمتان قصداً :

فإن المقصود من الترجمة التفسيرية بيان ما يدرك من لفظ الأصل وتفصيله وإيضاحه حسبما يقتضيه المقام بدون تقيد بترتيب نظم الأصل ووضعه ولا مراعاة إبدال كلمة بكلمة أو جملة بأخرى ولذلك ترى المترجم يعمد إلى اللفظ الواحد أو الجملة الواحدة فيشرح المعنى الوضعى بجمل متعددة ويضم إليه ما تمس إليه الحاجة من البيان والشرح ويطلق على مجموع ذلك ترجمة تفسيرية وهى فى الحقيقة تفسير بلغة أخرى وقد نصوا على أنَّ تفسير القرآن يشمل البحث عن كيفية النطق وضبط رواياته ومدلولات مفرداته وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التى تحمل عليها حالة التركيب ومعرفة الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول[٢] وغير ذلك مما اشتملت عليه كتب التفسير .

---

(١) مساوية ومعادلة .

(٢) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى .

فكما أن التفسير باللغة العربية يشمل ذلك كله كذلك الترجمة التفسيرية بأية لغة أخرى تتناول هذه الأبحاث ، وتصبح بذلك ترجمة لتفسير القرآن وإن شئت قلت تفسيراً للقرآن بلغة أخرى لا ترجمة لذات القرآن الكريم .

بخلاف الترجمة الحرفية فإن المقصود منها إبدال لفظ الأصل بما يؤدى معناه من اللغة الأخرى بقدر الإمكان ، فالمترجم فيها هو الأصل ذاته لا تفسيره وبيانه وإن كان لا يلاحظ فيها وجوب الاحتفاظ بما للأصل من الخصائص [1] والمزايا ، ولذلك سميناها (ترجمة حرفية بدون المثل) فإن لوحظ فيها ذلك كانت خليقة إن تسمى ترجمة حرفية مثلية .

وحيث اتضح لك الفرق بين هذه التراجم الثلاثة يظهر أن الترجمة الحرفية المثلية للقرآن الكريم بأية لغة غير معقولة ولا ممكنة وأن الترجمة التفسيرية جائزة قطعاً وهى ترجمة للتفسير لا للقرآن وأن هاتين الترجمتين ليستا محل بحث ولا خلاف بين العلماء وإنما محل البحث كما قدمنا هو الترجمة الحرفية غير المثلية للقرآن الكريم نفسه.

ولا نعنى بذلك أنها لم تقع فى الوجود فإن كثيراً من مستشرقى الغرب تناولوا القرآن الكريم بالترجمة من القرن الحادى عشر ولا يزالون يعانونها إلى الآن

---

(١) البلاغية والأدبية والذوقية .

ولهم فى القرآن تراجم مختلفة ولأكثرهم ولوع بالنيل منه والحط من شأنه والرد عليه والتحريف لنظمه والتغيير لمعناه ولهم كتب وصحف خصيصة[١] بذلك وقساوسة ينبثون فى أطراف الأرض لنشرها ، والتمويه بها ، وأموال تدر عليهم بإسراف فى هذا السبيل ، وحكومات تذلل أمامهم الصعاب وتفتح لهم مغلق الأبواب ، وغير ذلك مما يدل على أن ما فى صدورهم من الحنق على القرآن والإسلام قد حملهم على الكيد له من طريق الترجمة والتحريف ، ليعفى أثره ويتقلص ظله :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (التوبة: ٣٢) .

وليس فى الإمكان منعهم من سلوك هذا السبيل ولا ردهم عن الدنو من هذا الحمى المقدس ما دام لا سلطان عليهم ولا حرمة للكلام الإلهى عندهم وإنما فى إمكاننا ومن الواجب علينا شرعاً أن ندعوهم إلى الحق ونعلمهم أن ما أمعنوا

---

(١) ولم ينهض أىٌّ منها لإقناع أحد من أشد الخصوم والحقد على الإسلام :
﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ (الكهف: ٥) .

فيه وجدُّوا ليس ترجمة للقرآن ، ولا بالغًا منه شيئاً ولا آتيا منه ومن أحكامه وحكمه إلا على القليل .

وأنهم غالطون أو مغالطون فى زعمهم أنهم ترجموا القرآن ونقلوا لأبناء لغتهم عماد الإسلام وحجة المسلمين ، بل ما نقلوا أقل مما تركوا وما جهلوا أكثر مما علموا قد تسرب إليه كثير من الخطأ لجهل النقلة أو تعمدهم التحريف والتبديل كما ندعو هؤلاء إلى هذه الحقائق نرشد المسلمين إلى حكم الدين فيما اعتزموا الإقدام عليه من ترجمة القرآن إلى لغات أخرى ، وهم موضع خطاب لشارع بالحل والتحريم وأعمالهم موضع المؤاخذة بالإثابة أو العقوبة :

﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (يونس: ١٠٨) .

وأن للقرآن ربًّا يحميه قال تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر: ٩) .

أى : من كل ما يقدح فيه من زيادة أو نقص أو تحريف أو تبديل ولم يحفظ الله تعالى كتابًا من الكتب السماوية كما حفظ القرآن الكريم بل استحفظها جل ذكره الربانيين والأحبار وحملهم عبئها وألزمهم أمانتها ، فوقع فيها ما وقع من التبديل والتغيير ، وتولى سبحانه حفظ القرآن وصيانته ليبقى آية ناطقة بالحق

وحجة قائمة على العالمين أبد الدهر ، ومعجزة دائمة لخاتم أنبيائه - صلوات الله عليهم - إلى يوم الدين ، فلم يزل ولا يزال محفوظاً بحفظه مرعيا بكلاءته مصونا بحمايته باقياً ظاهراً حتى يأتى أمر الله كما أولى حفظه وبيان معناه من لا ينطق عن الهوى وهو النبى المعصوم ﷺ .

قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (النحل : ٤٤) .

أى : من الأحكام والشرائع والأمثال والمواعظ وسير القرون الخالية وقصص الأمم الماضية والعلوم الكونية والقواميس العمرانية وغير ذلك مما حواه الذكر الحكيم من الأسرار التى لا تحصى والعجائب التى لا تستقصى وفى حديث أخرجه الترمذى قال : قال رسول الله ﷺ :

« كتاب الله تعالى فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله تعالى ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله تعالى ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، والصراط

المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الردّ ولا تنقضى عجائبه))[١] .

وأخرج ابن أبى حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس قال :

((أن القرآن ذو شجون وفنون لا تنقضى عجائبه ولا تبلغ غايته ، من أوغل فيه برفق نجا ومن أوغل فيه بعنف هوى ، أخبار وأمثال وحلال وحرام وناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه وظهر وبطن فظهره التلاوة وبطنه التأويل فجالسوا به العلماء وجانبوا به السفهاء وقد أكمل الله به الدين الحنيف))[٢] .

كما قال الله تعالى :

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣ ﴾ (المائدة : ٣) .

وأتم رسوله ﷺ بيانه فألزم الحجة وأوضح المحجة وقال :

---

(١) ضعيف : أخرجه الترمذى فى سننه حديث رقم (٢٨٣١) [مشكاة المصابيح (٢١٣٨)] .

(٢) انظر الدر المنثور (٢ / ١٥٠) .

((تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ)) [(١)].

وعن المقدام بن معد يكرب قال : قال رسول الله ﷺ :

((ألاهل عسى منكم يبلغه الحديث عنى وهو متكئ على أريكته فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله تعالى فما وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراماً حرَّمناه وأنَّ ما حرمه رسول الله ﷺ كما حرمه الله)) [(٢)].

أخرجه أبو داود والترمذى وزاد أبوداود فى أوله :

((ألا أنى أوتيت الكتاب ومثله معه)) [(٣)].

---

(١) حديث حسن : أخرجه الإمام مالك فى الموطأ حديث رقم (١٣٩٥) ، [مشكاة المصابيح (١٨٦)] .

(٢) صحيح : أخرجه الترمذى حديث رقم (٢٥٨٨ [صحيح الجامع حديث رقم (٤٤٢٢)] .

(٣) أخرجه أبوداود فى باب لزوم السنة ولفظه : (أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنْ السَّبُعِ وَلَا لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ إِلَّا أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُ فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُ) حديث رقم (٤٨٣٩) .

وذلك المثل هو سنته ﷺ التى بين بها الذكر الحكيم وبيانه كما ذكره جمهور العلماء أعم من التصريح بالمقصود ومن الإرشاد إلى ما يدل عليه .

فيدخل فيه قياس المجتهد وإشارة النص ودلالته وما يستنبط منه من الأحكام والعقائد والحقائق والأسرار الإلهية وفى قوله تعالى :

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾(الأعراف: ١٧٦).

وما ماثله مما استحث فيه العقل والفكر إلى النظر إشارة إلى ذلك حيث طلب منهم أن يتأملوا ويمعنوا النظر ليدركوا الحقائق ويتعظوا بالعبر ويؤدوا حق الله وكتابه وحق رسوله وشريعته حتى لا يكونوا كمن سبقهم من الأولين فى سوء الأعمال مع الأنبياء وتكذيب شرائع الله فحقت عليهم كلمة العذاب :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾(الرعد: ٥) .

ولا شك أن الإتيان بما ينافى حفظ القرآن فى نظمه وأسلوبه ويكون ذريعة إلى تغييره وتبديله ومظنة لعبث الأيدى والألسن به عمل سيّئ وشر مستطير وتطاول على الله ورسوله وانتهاك لحمى مقدس وجرم مبيت يخشى أن يؤخذ مقترفوه أخذ غيرهم من الأمم السابقة بألوان العذاب وأشد العقاب :

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ (هود: ١٠٢).

ومن أسوأ هذه الأعمال وأكثرها شرًّا وأعظمها ضرراً وأشدها اجتراء على كتاب الله ترجمته حرفيًّا فإنها ضَرْبٌ من التحريف والتغيير والتبديل فيما تولى الله وسوله حفظه، وأمرنا بالمحافظة عليه من ذلك بل، وكذلك ترجمته التفسيرية إذا لم تستمد من الأحاديث النبوية الصحيحة، وعلوم اللغة العربية والأصول المقررة فى كتب الشريعة الإسلامية، ليعرف الناسخ والمنسوخ والعام والخاص[1] والمطلق والمقيد وأسباب النزول وحكم المجمل والمتشابه وغير ذلك مما اعتمد عليه المفسرون لأنها لا تكون تفسيراً لمعنى القرآن الكريم ولا إلى ما يرمى إليه من المقاصد الكفيلة بمصالح العباد وسعادتهم الدنيوية والأخروية إلا إذا اعتمدت على ذلك، وإلا فلا يعتد بها أصلا كما لا يعتد بأى تفسير للقرآن بالعربية.

ولا يؤخذ ولا يطلق عليه اسم التفسير إذا لم يكن مستمدًّا من تلك المناهل معتمداً على هاتيك الأصول، خصوصاً فيما يتعلق بالأحكام الشرعية بل التعويل

****

(١) راجع البرهان فى علوم القرآن للزركشى (١/ ٢٢٥)، والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (١/ ٢٠).

فى التمسك بها واعتبار دلالة القرآن عليها بالسنة لعامة الناس اليوم، إنما هو على ما ذكره الفقهاء ودونوه فى كتبهم الصحيحة .

ولا يقال أن فى ذلك تركاً للآيات والأحاديث بل هو عين التمسك بها فإن القرآن والأحاديث ما وصلت إلينا إلا بواسطتهم مع كونهم أعلم ممن بعدهم بصحيحها وحسنها وضعيفها ومرفوعها ومرسلها ومتواترها وآحادها وغريبها وتأويلها وتاريخ المتقدم والمتأخر منها والناسخ والمنسوخ وأسبابها ولغاتها وسائر علومها مع تمام ضبطها ، وتحريهم لها ، وكمال إدراكهم وقوة ديانتهم واعتنائهم وتفرغهم ونور بصائرهم فقد تفقهوا فى القرآن والأحاديث على مقتضى قواعد الشريعة واستخرجوا قواعد القرآن والأحاديث واستنبطوا منها قواعد وأحكاماً وبينوا على مقتضى المعقول والمنقول ودونوا الدواوين ويسروا على الناس أمر الدين وأزالوا المشكلات باستخراج الفروع من الأصول ورد الفرع إليها فانتظم الحال واستقر من الدين لأمة محمد ﷺ بسببهم الخير العميم وكل ذلك راجع إلى القرآن وفضل اختصاصه باللسان العربى .

****

(٣) القرآن عربى فى مراتب وجوده :

فتوحده بهذا اللسان هو الضابط الكلى والطريق السوى وهذا التوحيد هو الثابت له فى جميع مراتبه ، فإن القرآن الكريم كما أنه فى مرتبته الأزلية كلمات غيبية مرتبة بصفته القديمة ترتيبًا علميًّا لا تعاقب فيه ممتازة عن سائر الكلمات الأزلية الأخرى حسبما تقرر فى علم الكلام .

كذلك فى مرتبته الكونية أظهره الله فى السماء مكتوباً فى اللوح المحفوظ عربياً ممتازاً فى وجوده الكتابى عن سائر الكتب الأخرى وعلى ألسنة الملائكة الكرام كذلك بهذه الصورة وأظهره فى الأرض على لسان نبيه ﷺ فى صورة عربية واحدة وإن تعددت حروفها بتعدد اللغات العربية الفصحى كما فى السماء فقد جاء عنه ﷺ أنه قال :

«أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ»[1] .

---

(١) حديث صحيح : رواه أحمد حديث رقم (١٩٥٢٩) ، و النسائى فى السنن الكبرى حديث رقم (٧٩٨٦) ، و الطبرانى فى المعجم الكبير حديث رقم (١٦٧٣٠) وفى الأوسط حديث رقم (٦٢١٢) [السلسلة الصحيحة حديث رقم (٢٥٨١)] .

رواه واحد وعشرون صحابياً ونص أبو عبيدة على تواتره قال : وليس المراد أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات بل اللغات السبع مفرقة فيه فبعضه بلغة قريش وبعضه بلغة هذيل وبعضه بلغة هوازن وبعضه بلغة اليمن وغيرهم .

ومعناه أن جبريل عليه السلام كان يأتى فى كل عرضة بحرف إلى أن تمت السبعة وذلك تخفيف وتيسير على الأمة فى التكلم بلغاتهم كما خفف عنهم فى شريعتهم وكذلك رواه الحفاظ عنه ﷺ بهذه الصورة كما أنزل جيلا بعد جيل إلى وقتنا هذا ، وكما أظهره سبحانه فى السماء مكتوباً باللسان العربى كذلك أظهره فى الأرض مكتوباً مفرقاً فى الرقاع والأكتاف واللخاف والعسب ثم جمع فى المصاحف العثمانية بهذا اللسان المجيد كما سبق بيانه ، وورد أن قراءة أهل الجنة عربية .

وللمحافظة على توحده فى مراتب وجوده اختص الإرسال به وإنزاله باللسان العربى والأسلوب المعجز البليغ مع أن بعثته ﷺ عامة شاملة للأسود والأحمر والعربى وغيره على اختلاف لغاتهم وتباين لهجاتهم .

قالوا : والحكمة فى ذلك أنه لو تنوع النظم المنزل عليه ﷺ حسب اختلاف ألسنة الأمم المبعوث إليها بأن نزل مرة عربيًّا وأخرى عبريًّا وثالثة فارسيًّا وهلم جرا لكان أدعى إلى التنازع واختلاف الكلمة وتطرق التحريف

والتبديل إليه فإن لكل أمة لغة خاصة بها خاضعة لمزاجها العقلى ، وشعورها الفكرى ، ولكل لغة خصائص ومزايا ، فيقرب من حد الاستحالة أن يتحد هذا المنزَّلُ باللغات العديدة فى الخصائص والدلالة والأحكام التى تستنبط من الدلالات وإشارة النصوص ، ومتى اختلف فى ذلك المنزل عليهم وأصبحوا فرقاً متناكرة كأنهم أهل كتب وشرائع متباينة لا يذعن كل قوم إلا لقرآنهم ولا يعترفون إلا بما نطق بلسانهم .

فضلاً عن أن نزول القرآن بلغات الأمم المبعوث إليها صاحب الرسالة يؤدى إلى أن ينزل القرآن بلغات شتى ولهجات مرذولة قدر ما حواه الوجود فى كل العصور من الأمم والشعوب والقبائل ، حتى اللغات المستحدثة التى انتقلت إليها بعض الجماعات فى أطوار نموها وأدوار حياتها ، وذلك أدعى ما يكون إلى الاختلاف فى القرآن مع ما فيه من تعرض القرآن إلى النزول برطانات موحشة مستهجنة وذلك من أفحش النقائص التى تنزه عنها كلامه القديم .

على أنا لا نتصور عاقلاً يفكر فى ضرورة نزول القرآن بجميع اللغات واللهجات تبعاً لعموم الرسالة وإلا كان فكره خبالا وتصوره ضلالا .

****

(٤) القرآن عربى والرسالة عامة :

وأى رابطة بين الطلبين ولا توقف لأحدهما على الآخر ، وذلك أن رسول الله ﷺ قد بعث لقومه خاصة وللناس عامة .

وكان قومه أهل فصاحة وبلاغة وجدل وخصام فدعاهم إلى التوحيد، وترك عبادة الأوثان والأصنام ، وأنزل عليه القرآن بلسان عربى مبين ، فبلغهم أحكامه وتعبدهم بتلاوته ، وتحداهم إلى معارضته والإتيان بسورة من مثله، فعجزوا وقامت عليهم الحجة ، وآمن به من اهتدى واستمر على العناد والضلال من غوى ، وكانت عربية القرآن ونهاية بلاغته وقوة حجته آية الآيات وأبلغ المعجزات ، ولولا ذلك لم تبلغ الدعوة من نفوسهم ما بلغت ولا تم له من الأمر ما أراد الله أن يتم ويظهر به دينه.

وكذلك كانت معجزات الأنبياء الكبرى تأتى على ما امتاز به القوم الذين بعث الأنبياء بين ظهرانيهم كعصا موسى عليه السلام ألقاه بعد أن ألقى السحرة حبالهم وعصيهم :

﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(الشعراء: ٤٥ – ٤٦) .

وإبراء عيسى عليه السلام الأكمه والأبرص، وإخراجه الموتى بإذن الله إعجاز لقومه الممتازين فى ذلك العصر بالبراعة فى الطب والعلاج، وجاء القرآن بعد ذلك عربيًّا اطراداً لسنة الله تعالى فى رسالاته وإعجازاً للمرتابين من عباده

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ (الفتح: ٢٣)

وقد اقتضت حكمته تعالى أن تكون أوضاع القرآن كلية عامة [1] وافية شاملة لجميع ما تحتاج إليه الأمة فى مختلف العصور على تعاقب الدهور، بحيث لا تعوزها الحاجة لشأن من شؤونها الدينية أو الدنيوية إلا وجدت فيه ما يشفى العلة ويروى الغلة، وذلك من كماله وعلو شأنه وبعد شأوه فهو من جهة نظمه الرائق وطرازه الفائق، بحيث لو اجتمعت الإنس والجن على مباراته لعجزوا عن الإتيان بمثل آية من آياته ومن جهة اشتماله على الحكم الخفية والأحكام المستتبعة للسعادات الدينية والدنيوية، والأمور الغيبية بحيث لا تناله عقول البشر، ولا يحيط بفهمه القوى والقدر، ومن حيث صلاحيته لجميع الأمم فى سائر العصور بحيث:

﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ﴾ (فصلت: ٤٢).

---

(١) تعمُّ جميع الأمم وتخاطب كل العوالم.

ولا يقصر عن حاجة ولا يقف دون غايته قول جزل ، وحكمة فصل، تبلى الأمم وهو على جدته ، وتختلف العصور وهو على حالته ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾(فصلت: ٤٢) .

وما هذا شأنه لا يليق بأوضاعه التفاصيل والجزئيات وكثرة القيود ، ولذا كانت حدوده نظما ومعنى فوق سائر الحدود ، وقد أمر رسول الله ﷺ ببيانه وتبيان أحكامه وشرح كلياته ومقاصده وأغراضه ، لا لتكمل دلالة فى معناه أو سد ثغرة فى مبناه إذ هى كاملة وافية ، وإنما هى لحاجيات الأمة فى كل عصر وزمان .

فبين وأوضح وصرح وأفصح واقتفى أثره الصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون والعلماء العاملون ، آخذين بهديه ﷺ :

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفاً من البحر أو رشفا من الديم

****

(٥) تبليغ الرسالة :

ثم بلغ رسول الله ﷺ رسالته إلى الناس عامة ، ونشر هدى النبوة بين الأمم والشعوب ببيان أحكام الدين التى جاء بها القرآن الكريم ، وبينتها السنة النبوية بما يمكن فهمه ويستطاع سبيله بدون ضرورة إلى تعدد لغاته ولا إبلاغهم نصوص آياته .

ولذلك حينما دعا ﷺ قبائل العرب ورؤساءهم وملوك الأرض إلى الإسلام لم يرسل إليهم سوراً من القرآن ولا آيات منه ، وإنما بعث إليهم الكتب ودعاهم ﷺ ببيانه الشافى ، ومن ذلك كتابه ﷺ إلى طهفة النهدى وقومه وهو كما فى صبح الأعشى [1]:

(من محمد رسول الله إلى بنى نهد السلام على من آمن بالله ورسوله ، لكم يا بني نهدٍ في الوظيفة الفريضة ، ولكم الفارض والفريش ، وذو العنان الركوب والفلو الضبيس ، لا يمنع سرحكم ، ولا يعضد طلحكم، ولا يحبس دركم ما لم تضمروا الإماق ، وتأكلوا الرباق من أقر بما في هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد والذمة، ومن أبى فعليه الربوة) .

(الوظيفة) : النصاب في الزكاة . (و الفريضة) : الهرمة المسنة.

---

(١) صبح الأعشى (٦ / ٣٥٤) ، والمثل السائر (١ / ١٦٦) .

(و الفريش) : ما انبسط من النبات ولم يقم على ساقٍ.

(و ذو العنان الركوب) : الفرس الذلول. (والفلو) : المهر الصغير .

(والضبيس) : المُهْرُ الصعب الذى لم يُروَّض . (والسرح) : الماشية .

(ولا يعضد طلحكم) : لا يقطع شجركم والطلح شجر عظام من شجرة العضاه . (والدر) : اللبن . (والإماق) : يراد به إضمار الغدر أو الكفر .

(والرباق) : يراد به نقض العهد . (والربوة) : الزيادة . (١) أهـ .

ومن ذلك ما بعث رسول الله ﷺ إلى كسرى أبرويز ملك الفرس مع عبدالله بن حذافة وإلى قيصر ملك الروم مع دحية الكلبى ، وإلى المقوقس صاحب مصر مع حاطب بن أبى بلتعة ، وإلى النجاشى ملك الحبشة مع عمرو بن أمية الضمرى .

فقد جاء فى كتابه ﷺ للأول ما نصه :

(من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، أدعوك بدعاية الله عزوجل ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس

---

(١) انظر السابق .

كافة ، لأ نذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم ، فإن توليت فإن أثم المجوس عليك)[١] .

وجاء فى كتابه ﷺ للثانى ما نصه كما فى الصحيحين[٢] :

(من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم : سلام على من اتبع الهدى أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الإريسيين)[٣].

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (آل عمران: ٦٤) .

الإريسيون : الزراع التابعون له .

وهذه الآية ونحوها مما يذكر فى كتبه ﷺ لم يقصد به إبلاغ نظم القرآن وتحمله والتعبد بتلاوته ، وإنما هو اقتباس قصد به أداء المعنى المراد فى هذا المقام.

---

(١) صبح الأعشى (٦/ ٢٨٤).

(٢) رواه البخارى (٧) ، ومسلم (١٧٧٣) .

(٣) صبح الأعشى (٦ / ٢٨٢) .

وقد أخرج الثلاثة وأبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو [١].

واستثنوا من ذلك نحو الآية والآيتين للاحتجاج .

وجاء في كتابه ﷺ للمقوقس نحو هذا الكتاب فيما ذكره ابن عبد الحكيم ونقله عنه في صبح الأعشى [٢] .

وجاء في كتابه للنجاشي [٣] :

(من محمدٍ رسول الله ﷺ إلى ملك الحبشة، إني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم البتول الطيبة الحصينة، حملته من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصحي. وقد بعثت إليكم ابن عمي جعفراً ومعه نفرٌ من المسلمين، والسلام على من اتبع الهدى) .

---

(١) رواه البخارى (٢٨٢٨) ، ومسلم (١٨٦٩) ، وأبوداود (٢٦١٠) .

(٢) صبح الأعشى (٦ / ٣٤٥) .

(٣) صبح الأعشى (٦ / ٣٦٤) .

إلى غير ذلك من الكتب والرسائل التى بعث بها رسول الله ﷺ إلى الرؤساء والملوك ، لا فرق بين العرب وغيرهم ممن لا يعرفون العربية ، يدعوهم فيها إلى الله والإسلام بما بين لهم من التوحيد وبعض الأحكام ، لا بآيات قرآنية .

وفى كتب المالكية :

وجاز بعث كتاب فيه كآية وحرم إرسال مصحف أو جزئه ما عدا آية وآيتين لكافر خشية إهانته أو إصابة نجاسة له .

ولو كان بعث آياته ضروريًّا فى التبليغ لما تركه رسول الله ﷺ وهو صاحب الرسالة المأمور بالتبليغ والإنذار كما قال تعالى :

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(المائدة: ٦٧).

نعم أمر رسول الله ﷺ زيد ثابت رضي الله عنه أحد كتاب الوحى أن يتعلم لغة اليهود ليكتب إليهم بلغتهم ويقرأ له كتبهم (كما فى الإتقان)[1] .

---

(١) الإتقان (١ / ٢٠٢) .

وكانت كتبه ﷺ لغير أهل العربية تترجم أمام الموفدين بها من قبله بواسطة تراجمة المرسل إليهم .

ولكن ذلك كان ترجمة لنصوص كتبه ﷺ[1] كما هو ظاهر ، وهى من السنة النبوية ، ولا قائل بمنع ترجمة السنة لأنها من كلام البشر .

ولذا أجاز الجمهور روايتها بالمعنى دون القرآن ، فإنه لم يقل أحد بجواز روايته بالمعنى كما سيأتى ، على أنه يجوز أن تكون ترجمتها تفسيرية لا حرفية .

وأما ما اشتملت عليه هذه الكتب الشريفة من الآيات المقتبسة من القرآن فإن تناولتها الترجمة فإنما هى ترجمة تفسيرية لما يفهم منها بالقدر الذى يقصد أداؤه بالكتاب المرسل ، لا ترجمة حرفية ، فإن زعم زاعم أنها حرفية فى هذه الآيات فعليه الإثبات .

وعلى فرض تسليمه فلا يدل على جواز ترجمة القرآن مطلقاً إذا هناك فرق بين ما يقع فى الكتاب من الآية والآيتين لمناسبة وبين ترجمة القرآن بتمامه أو بعض منه مستقلاً كما أشار إليه الإمام النووى فى شرح مسلم .

ومن ذلك يعلم أن عموم الرسالة والتبليغ لا يتوقف على نزول القرآن بجميع اللغات ، ولا على ترجمته بأية لغة ، بل الرسالة عامة ، والقرآن لا يكون

---

(١) ورسائله إلى الملوك والأمراء .

إلا عربيًّا قراءة وكتابة ، فلا وجه للتطاول عليه بما يسمونه ترجمة القرآن ، وأين هى منه وأين الثرى من الثريا ؟

(٦) لا تجوز ترجمة القرآن :

ولهذا ذهب العلماء إلى عدم جواز ترجمة القرآن ترجمة حرفية ، ولم ينقل عن أحد منهم جوازها فى أى عصر من العصور سوى ما نقل عن الحنفية فى القدر الواجب فى الصلاة لدليل خاص ، وذلك لما يبق بيانه من أنها ضرب من التحريف والتغيير والتبديل ويجب تنزيه كلام الله القديم عنه وصيانته منه ، ولأن المترجم مهما كان ضليعاً فى اللغتين عالماً بخصائصهما لا يستطيع أن يحتفظ بجميع مزايا النظم البديع فى الترجمة بحيث تكون مماثلة للأصل كما قدمنا .

فلا بد أن تكون قاصرة عن تلك المنزلة ، نازلة عن هذه المرتبة ، وللقصور مراتب متفاوتة ، فتخرج الترجمة بالقياس إلى الأصل ركيكة المبنى ضئيلة لا تحكيه ولا تدل عليه تماماً كالصورة البتراء والظل الناقص .

ومع ذلك يزعم المترجم أنها ترجمة القرآن ، وصورة مطابقة له حافظة لمزاياه آتية على معناه ، ويجادل عنها إذا عابها عائب بالضعف والضآلة .

ولا يسع أحداً تجاهل هذا النقص فى ترجمة القرآن إلا أن يكابر فيسخف قوله ويسقط رأيه .

وكثيراً ما سمعنا أنهم ترجموا بضع آيات ترجمة سخيفة بناء على إفهام سقيمة، وحكموا على القرآن الكريم بما هو منه برئ ، فكيف يجوز تعريض القرآن لمثل هذا المسخ والتشويه .

وإذا كان المتضلعون من اللغة الهندية لم يستطيعوا بعد محاولات عديدة مددا مديدة ترجمة (الفيدا) وهو الكتاب المقدس لدى البراهمة ، واعترفوا بقصورهم عن ترجمته ترجمة صحيحة ، فما بالك بالقرآن الكريم وهو كلام الله القديم ، وكيف تجوز ترجمته وهى لا بد غير وافية .

على أنها تؤدى إلى انتقاصه واستصغار شأنه فى نظر أولئك الأجانب الذين يجهلون العربية أو يعلمون منها القليل ، وقد منع العلماء كل ما يؤدى إلى ذلك .

ومنه كتابته بالحروف المصغرة لمنافاتها للتعظيم ، وقد روى عن عمر رضي الله عنه أنه وجد مع رجل مصحفاً مكتوباً بقلم دقيق فكره ذلك وضربه بالدرة وقال : ((عظموا كتاب الله تعالى)) [1] .

---

(١) عزاه الهندى فى كنز العمال (٤١٦٥) إلى

ولذلك كانت كتابة المصاحف وطبعها بالحروف المصغرة بدعة منكرة واتخاذها حرزاً[١] بهذه الكيفية أشد نكراً ، ومنعوا قراءته فى الأماكن المبتذلة ومجالس اللهو والطرب ، ومنعوا التصنيع فى تأديته بالألحان والنغمات المخرجة له عن الطبيعة وشريطة الأداء ومن ذلك نقله وأداؤه بالآلة الحاكية المعروفة بالفوتوغراف لأن كل ذلك مناف لتعظيمه وتقديسه .

وأى استهانة بكلام الله القديم واستخفاف بشأنه أشنع من نقل ألفاظه الشريفة وآياته المقدسة بآلات لا تدار إلا للطرب بالأناشيد الغرامية والمداعبات الفكاهية واللهو بالهجر من القول ، وقد قيل فى قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ (لقمان: ٦) .

﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ على ما روى عن الحسن وغيره[٢] ما شغل عن عبادة الله تعالى وذكره من السمر والأضاحيك والخرافات والغناء .. أهـ .

---

(١) حجابًا من الأذى والسحر .

(٢) روح المعانى (٢١ / ٦٧) .

وتلاوة القرآن واستماعه عبادة ، وقد وردت أحاديث كثيرة فى آداب القرآن وتعظيمه وكلها دالة على الترفع به عن مواطن النقص والهوان والتحريف والتغيير .

فكيف يُجْتَرَأُ عليه بمثل ذلك ، وكيف بجواز ترجمته وفيها من التحريف والتغيير ما لا يسع أحداً إنكاره ، أليست الترجمة الحرفية بغير لغته كوضع كلمات عربية موضع كلماته وهو ممنوع بتاتاً فمنع هذه أحق .

وقد ذكر المفسرون فى قوله تعالى :

﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ ﴾ (النساء: ١١٩)

إن من جملة ذلك تغيير فطرة الله تعالى التى هى الإسلام ، واستعمال الجوارح والقوى فيما لا يعود على النفس بكمالها ، ولا يوجب لها من الله زلفى لأنه استعمال لها فى غير ما خلقت له .

وظاهر أن ترجمة القرآن بغير لغته العربية تغيير لفطرة الله تعالى التى فطر القرآن عليها ، وهو أصل الإيمان والإسلام ، وإضاعة لحكم التعبد بتلاوته والإعجاز بنظمه ، على أن النظر الصحيح يقضى بشاعة النطق بهذا اللفظ (ترجمة

القرآن) الموهم أن ما فى الترجمة يماثل المترجم ، ولا فرق بين أن يقال ترجمة القرآن، وقرآن مترجم أو يقال قرآن عربى وقرآن فارسى وقرآن فرنسى وهكذا إلى ما لا يحصر من النسبة إلى اللغات .

وليس هذا موضع إنكار أو مكابرة وقد نهينا عن استعمال ما يوهم نقصاً فى حقه تعالى سواء فى ذاته أو صفاته أو أفعاله ، ولو أريد به معنى صحيح إلا فى مقام التعليم للضرورة .

وقد قالوا : لا ينبغى أن يقال فى القرآن الكريم أنه حادث أو مخلوق، تحاشيًا من الذهاب إلى المعنى القديم مع أنه بالمعنى اللفظى حادث ومخلوق ، كما رفع لابن عباس رضي الله عنهما فقد أخرج ابن مردويه عن طاووس [1] قال جاء رجل إلى ابن عباس من حضر موت فقال له : يابن عباس أخبرنى عن القرآن الكلام أَمِنْ كلام الله تعالى أم خلق من خلق الله سبحانه ؟

قال : بل كلام من كلام الله تعالى أو ما سمعته سبحانه يقول :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة: ٦)

---

(١) انظر الدر المنثور (٧/ ٣٦٥) .

فقال له الرجل :أقرأت قوله تعالى :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ ﴾(الزخرف: ٣)

كتبه الله فى اللوح المحفوظ بالعربية أما سمعت الله تعالى يقول :

﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾(البروج: ٢١ – ٢٢) أهـ .

فإذا كان شأن القرآن فى السماء والأرض عربى بلسان مبين فما بال أقوام يريدون الخروج به عن سنته والاعتساف عن جادته :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾(التوبة: ١١٥) .

وجملة القول :

أن الترجمة الحرفية للقرآن بدون المثل غير جائزة شرعاً .

وأن الترجمة التفسيرية كتفسير القرآن الكريم جائزة بشرط أن يكون التفسير صحيحاً معتمدً على ما أشرنا إليه ، والترجمة كذلك وأن تعميم الرسالة للبشر لا يتوقف على ترجمة القرآن ، بل على تبليغ أحكامه ، وسبيله أن تترجم أحكام الإسلام من عقائد وعبادات وغيرها ترجمة صحيحة وافية مشفوعة ببيان حكم

التشريع ومقاصده ، حتى يتجلى للمطلع عليها محاسن الدين الحنيف وأسرار الشرع المنيف .

وهذا النوع من الترجمة أصبح الآن من فروض الكفاية على جماعة المسلمين، فإذا قاموا به فقد أدوا حق الله وحق الإسلام ، وأجابوا داعى الله كما قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (آل عمران: ١٠٤) .

وبذلك تنتهى حاجة من لا يعرف لغة القرآن وأحكام الإسلام وبه تتحقق الدعوة إليه والإنذار به ، فإذا عرف محاسنه وشرح الله صدره إليه تسمو نفسه إلى تعلم لغة القرآن ، وعند ذلك يبلغ بلسانه ، ويخاطب بحكم التحمل له والتعبد بتلاوته .

وهاهم الترك والفرس والهنود وغيرهم من الأمم الإسلامية لا يعرفون العربية ولكنهم يقرءون القرآن بالعربية ويفهمون منه ما يقدرون عليه، ويؤدون فرائض الإسلام من غير طريق الترجمة .

فهذا هو السبيل المشروع فى الدعوة إلى الإسلام والصراط المستقيم لمن يبتغى الوصول لدار السلام .

وإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

ولا شك أن ترجمة القرآن من شر المحدثات [1] وإذا فتح الناس بابها مع كونه مفسدة فى ذاتها ولجه كل طارق ، ودلف إليه كل قاصد ، لا فرق بين عالم وجاهل وعارف بأسلوب القرآن وغير عارف .

وعلى توالى الأيام وتتابع العصور يُتناسَى الأصل ويُهجَر وتكثر التراجم وتختلف وتعرف هذه بترجمة فلان ، وهذه بترجمة فلان، وهذه بترجمة فلان ، ويقال هذه تدل على كذا وتلك تدل على خلافه وهكذا ، مما يؤدى بالطبيعة وحكم العادة إلى تشعب الأهواء ، وتباين الآراء ، واختلاف الناس فى دين الله وأقوال شمس القرآن الساطعة وتلاشى نوره الهادى ، والأخذ بحرفية التراجم والاعتماد عليها وحدها كما يؤخذ الآن بحرفية القرآن المبين ويعتمد عليها .

وها نحن الآن نرى كثيراً من مقلدة الغربيين المغرمين بكل حديث مهما كان شأنه قد هجروا لغة قومهم وكتب دينهم وعادات بلادهم وآداب أهليهم، وبتّوا حبل الصلة بها ، وبعدوا كل البعد عن أهلها غراماً بالتقليد، وولوعا بالجديد ، حتى لقد بلغ من شدة اصطباغهم بصبغة الفرنجة أن تبلبلت ألسنتهم وأصبحوا

---

(١) إلا ما تحرر من ترجمة وبيان المعانى .

إذا أرادوا التعبير عن غرض أدركهم العىُّ والحصر فيأتون بعبارات بعضها ضعيف وبعضها بلغات أخرى شأن الدخلاء فى اللغة إذا علموا منها القليل .

ومنهم الآن من لا يعرف قليلاً ولا كثيراً من دينه وكتبه ، حتى إذا أخبر بأن ما هو مولع به ، ومستحسن له من آداب الغرب ، وحسناته قد حث عليه الدين وأفاض فيه علماء الإسلام عجب واستغرب ، فإذا كان هذا حال المسلمين وحال أبناء اللغة ، ولم يبلغ الشر مداه فماذا عسى أن يكون الحال إذا توالى الزمن وانقرضت البقية الباقية وكثر هؤلاء المعجمون ، وانقطعت صلتهم بالقرآن الشريف ولغته وأهله وكتبه ، لا شك أن القرآن يصبح غريباً فى قومه غريباً فى شرقه :

إن دام هذا ولم تحدث له غير   لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

ولذلك جاءت نصوص العلماء :

بتحريم ترجمة القرآن وقراءته وكتابته بغير العربية صيانة له وحفظاً لما أمر الله تعالى بحفظه ، ودرءُ المفسدة مقدم على جلب المصلحة ، وسدًّا لذرائع من الدين والله غالب على أمره .

****

(٧) ترجمة القرآن وقراءته وكتابته بغير اللغة العربية :

المعمول عليه عند الأئمة وسائر العلماء أنه لا يجوز كتابته ولا قراءته ولا ترجمته بغير العربية مطلقاً إلا فيما نقل عن أبى حنيفة وصاحبيه من جواز قراءة القرآن بالفارسية فى خصوص الصلاة وإليك بعض النصوص فى ذلك .

قال شيخ الإسلام أبوالحسن المرغينانى الحنفى فى التجنيس :

(ويمنع من كتابة القرآن بالفارسية بالإجماع لأنه يؤدى إلى الإخلال بحفظ القرآن لأنا أمرنا بحفظ اللفظ والمعنى فإنه دلالة على النبوة ولأنه يؤدى إلى التهاون بأمر القرآن) أ . هـ .

وقال فى معراج الدراية :

(من تعمد [١] قراءة القرآن وكتابته بالفارسية [٢] فهو مجنون أو زنديق والمجنون يداوى والزنديق يقتل ، وروى ذلك عن أبى بكر محمد بن الفضل البخارى) أهـ .

---

(١) من العرب أو ممن يجيدون لغة العرب .

(٢) أو غيرها من غير حاجة .

وفى الدراية :

(أن القرآن اسم للنظم والمعنى جميعاً بالإجماع ، وقد أنزل حجة على النبوة وعلماً على الهَدْيِ والهُدَى بمعناه والحجة بنظمه ، وكما أن الإخلال بالمعنى يسقط حكم القراءة ، كذلك الإخلال بالنظم ، ولأن حفظ القرآن واجب فى الجملة ليكون حجة على الحكم ولا قراءة تجب إلاَّ فى الصلاة فعلم أنها متعلقة بعين ما أنزل ليقع الحفظ بها) أهـ .

وروى عن الإمام أبى حنيفة كما فى الهداية وغيرها :

(جواز قراءة القرآن بالفارسية فى الصلاة مطلقاً ، وعن الصاحبين إذا كان لا يحسن العربية أما إذا كان يحسنها فلا يجوز وتفسد صلاته إذا قرأ بغير العربية) .

وروى أبوبكر الرازى رجوع الإمام إلى قولهما وعليه الاعتماد .

وقال الإمام الزهرى فى الجامع الصغير :

(إن ما نقل عن أبى حنيفة وصاحبيه من أن القراءة بالفارسية تفسد الصلاة لمن قدر على العربية ، أما عند العجز فلا فساد (محله) إذا قرأ بالفارسية كل لفظ بما هو فى معناه من غير أن يزيد فيه شيئاً أما إذا قرأ على سبيل التفسير فتفسد صلاته بالإجماع) أهـ .

وهو تقييد حسن لأنه حينئذ يكون متكلماً بكلام غير القرآن من كلام الناس وهو مفسد للصلاة .

وأصل الاختلاف فى ذلك كما فى (بدائع الصنائع وأحكام القرآن) لحجة الإسلام الجصاص قوله تعالى :

﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ (المزمل: ٢٠)

حيث أمر بالقراءة والأمر للوجوب ، ولا موضع لوجوب القراءة غير الصلاة ، فوجب أن يكون المراد القراءة فى الصلاة فذهب الصاحبان إلى أنه إذا قرأ بالفارسية وهو يحسن العربية فقد قرأ ما ليس بقرآن فلم يخرج عن عهدة الأمر ؛ لأن الفارسى ليس قرآناً والقرآن هو المنزل بلغة العرب :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف: ٢)

وأيضاً : فالقرآن هو المعجز والإعجاز من جهة اللفظ يزول بزوال النظم العربى فلا يكون الفارسى قرآنا لانعدام الإعجاز ولهذا لم تحرم قراءته على الجنب والحائض غير أنه إذا كان لا يحسن العربية فقد عجز عن مراعاة لفظه فيجب عليه مراعاة معناه ليكون التكليف بحسب الإمكان . أ هـ .

والمراد مطلق المعنى وإلا فمعنى النظم المعجز لا تؤديه الترجمة كما هو ظاهر.

ولا يعنينا الآن بيان وجه استدلال الإمام بالآية على ما ذهب إليه بعد أن صح رجوعه إلى قول الصاحبين .

فظهر أن قول الثلاثة بجواز قراءة القرآن بغير العربية فى الصلاة لمن لا يحسنها ليس مبناه أن الترجمة تصير قرآنا عند العجز عن أدائه بالعربية فيفرض عليه ذلك فى هذه الحالة ، بل المفروض عليه حينئذ تعلم العربى لأنه القرآن المأمور به فى الصلاة ، وإنما هو مبنى على الاكتفاء بالمعنى فى حقه لعجزه ، ولأنه الميسور له من معنى القرآن الذى هو مجموع النظم والمعنى المأمور به فى الصلاة ولما كان أداء المفروض موقوفاً على النظم العربى ، وليس ذلك ميسوراً له أتى بالترجمة بدلا عنه لتقوم مقامه فى أداء المعنى المفروض مع أنها ليست قرآنا لأن القرآن هو كلام الله المنزل بلغة العرب والترجمة ليست كذلك .

وفى الدراية :

قراءة غير العربى تسمى قرآناً مجازاً ألا ترى أنه يصح نفى القرآن عنه فيقال : ليس بقرآن وإنما هو ترجمته ، وإنما جوزناه للعاجز إذا لم يخل بالمعنى لأنه قرآن من وجه باعتبار اشتماله على المعنى ، فالإتيان به أولى من الترك مطلقاً إذ التكليف بحسب الوسع . أهـ .

وظاهر أن مسألة القراءة في الصلاة شيء ومسألة ترجمة القرآن وقراءته بغير اللغة العربية مطلقاً شيء آخر.

والكلام فى الثانى دون الأول، ولا يلزم من جواز الأول على فرض تسليمه جواز الثانى حتى ينسب إلى الإمام وصاحبيه القول بجواز ترجمة القرآن وقراءته خارج الصلاة وكتابته بغير اللغة العربية، وكيف ذلك وقد اجتمعت كتبهم على أن الخلاف فى خصوص الصلاة، وأصله أن الأمر بالقراءة إنما هو فى الصلاة دون غيرها كما طبقوا على أنه المراد فى قوله تعالى :

﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾ (المزمل: ٢٠) والقرآن المعروف هو اللفظ المنزل بلغة العرب خاصة .

وفى شرح أصول البزدوى للإمام عبدالعزيز بن أحمد الحنفى :

(والقرآن اسم النظم والمعنى جميعا فى قول عامة العلماء وهو الصحيح من قول أبى حنيفة إلا أنه لم يجعل النظم ركنا لازما فى جواز الصلاة خاصة وإنما هو لازم فيما سواه من الأحكام الأخرى، كوجوب الاعتقاد وحرمة كتابة المصحف بالفارسية، وحرمة المداومة والاعتياد على القراءة بها) أهـ .

وقد نقل أن الإمام رجع عن هذا القول فى الصلاة أيضاً إلى القول بعدم جواز الصلاة بالفارسية مطلقاً ، فيكون النظم ركناً لازماً عنده فى كل حالة كما ذكره العلامة الألوسى فى تفسيره عند قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾ (الشعراء: ١٩٦)

حيث قال : واشتهر عن الإمام أبى حنيفة رضي الله عنه أنه أجاز قراءة القرآن بالفارسية والتركية وغيرهما من اللغات مطلقاً استدلالاً بقوله تعالى:

﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾ بناء على عود الضمير إلى القرآن باعتبار معناه وفى رواية عنه تخصيص الجواز بالفارسية لأنها أشرف اللغات بعد العربية، وفى أخرى إنها إنما تجوز بالفارسية فى الصلاة للعاجز عن العربية ، وقد صح رجوعه عن القول بجواز القراءة بغير العربية مطلقاً جمع من الثقات المحققين ، لضعف الاستدلال بهذه الآية عليه كما لا يخفى ، فإن الظاهر عود الضمير فى الآية على القرآن بتقدير مضاف أى وإن ذكر القرآن لفى الكتب المتقدمة ، وهذا كما يقال : إن فلانا فى دفتر الأمير . أهـ ملخصاً .

ومن هذا يعلم ما فى استدلال بعضهم بقول الإمام على جواز ترجمة القرآن بأى لغة خارج الصلاة وداخلها للقادر والعاجز ؛ لأنه على رواية التخصيص بالفارسية لا تجوز بغيرها مطلقاً .

وعلى رواية رجوعه إلى قول صاحبيه لا تجوز خارج الصلاة مطلقاً ولا للقادر فى الصلاة، وعلى رواية الثقات عنه لا تجوز مطلقاً بغير العربية فى الصلاة وغيرها للقادر والعاجز، والمعول عليه رأيه الأخير الذى صح رجوعه إليه كما هو رأى الجماعة فكيف يصح الاستدلال بقوله على جواز ترجمة القرآن مطلقاً.

(٨) الرواية بالمعنى فى الحديث والقرآن :

وفى أصول البزدوى وشرحه كشف الأسرار فى باب شرط نقل المتون ما ملخصه :

(أن نقل الحديث إن كان بلفظ محاك للفظ المسموع منه ﷺ فذلك نقل للحديث وراوية له بلفظ وإن كان غير محاك للفظ المسموع ولا مطابق له بل مطابق لمعناه فذلك نقل للحديث وراوية له بالمعنى.

وقد اختلف السلف فى جوازه :

فذهب الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الفقهاء وأئمة الحديث إلى القول بجوازه، بشرط أن يكون الناقل عارفاً بدلالة الألفاظ واختلاف مواقعها، وأن يكون فى نوع خاص من السنة، وهو ما يكون محكماً لا يشتبه معناه، ولا يحتمل غير ما وضع له، للأمن فيه من الغلط، أو ظاهراً يحتمل غير ما ظهر من معناه من عام يحتمل الخصوص، أو حقيقة المجاز إذا كان الناقل مع ذلك عالماً بفقه

الشريعة ، حتى يؤمن عليه أن ينقله بعبارة لا تكون مثل الأصل فى الدلالة ، وما عدا هذين النوعين من مشكل ومشترك أو مجمل ومتشابه أو من جوامع الكلم التى اختص بها رسول الله ﷺ فلا يحل فيه الراوية بالمعنى لأن:

(الأول) : لا يفهم معناه إلا بتأويل وتأويله على غيره ليس بحجة .

(والثانى) : لا يتصور فيه النقل لأن المجمل ما لا يفهم مراده إلا بالتفسير والمتشابه ما سد علينا باب دركه وابتلينا بالكف عنه .

(والثالث) : لا يؤمن فيه الغلط لإحاطة الجوامع بمعان قد تقصر عنها عقول ذوى الألباب وتمسكوا فى جواز ذلك باتفاق الصحابة على قولهم : أمرنا رسول الله ﷺ بكذا ونهانا عن كذا وبأننا نعلم قطعاً أن اللفظ غير مقصود فى باب الحديث .

بل المقصود هو المعنى ، وهو حاصل فلا يلتفت إلى اختلاف اللفظ بخلاف القرآن ، والأذان والتشهد وسائر ما تعبد فيه باللفظ ؛ لأن اللفظ فيها مقصود كالمعنى حتى تعلق جواز الصلاة وحرمة القراءة على الجنب والحائض بالآية المنسوخة فلا يجوز الإخلال به كما لا يجوز بالمعنى .

وقال بعض أهل الحديث :

لا يجوز نقله بالمعنى بحال ، وهو مذهب عبدالله بن عمر من الصحابة ومحمد بن سيرين وجماعة من التابعين .

وهو اختيار أبى بكر الرازى من أصحابنا ، وتمسكوا بأن النقل بالمعنى ربما يؤدى إلى اختلاف معنى الحديث ، فإن الناس متفاوتون فى إدراك معنى اللفظ الواحد كما أشار إليه النبى ﷺ بقوله :

« فرب حامل فقه إلى غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه »(١)

ولهذا يحمل كل واحد منهم اللفظ الواحد على معنى لا يحمله عليه غيره مع إنه ﷺ قد أوتى جوامع الكلم ، وكان أفصح العرب لساناً وأحسنهم بياناً فلو جوزنا النقل بالمعنى ربما حصل التفاوت العظيم ، مع أن الراوى يظن أن لا تفاوت ، ولأنه لو جاز تبديل لفظه ﷺ بلفظ آخر لجاز تبديل لفظ الراوى أيضا بالطريق الأولى ؛ لأن التغيير فى لفظ غير الشارع ، ولجاز لك فى الطبقة الثالثة والرابعة ، وذلك يفضى إلى سقوط الكلام الأول لأن الإنسان وإن اجتهد فى تطبيق الترجمة لا يمكنه الاحتراز عن التفاوت ، وإن قل فإذا توالت هذه

---

(١) صحيح : رواه أبو داود (٣١٧٥) و الترمذى (٢٥٨٠) [صحيح الجامع (٦٧٦٦)]

التفاوتات كان التفاوت الأخير تفاوتا فاحشا بحيث لا يبقى بين الكلام الأول وبين الآخر مناسبة. أهـ.

ولعل إطلاق المنع من ذلك احتياط وسد لذريعة الفساد فلا ينافى ما جوزه الجمهور من ذلك كما يفهم من تعليل الفريقين.

وظاهر أن الكلام إنما هو فى النقل والرواية بالمعنى التى ليس شرحاً وتفسيرا للسنة، وإنما إبدال للفظ النبوى بلفظ آخر يحل محله ويؤدى معناه، كما يؤخذ من صدر عبارة الكشف، ولذلك اتفقوا على جواز شرح الشرع وتفسيره بالعجمية والعربية.

واختلفوا فى الرواية بالمعنى فهى كالترجمة الحرفية من لغة أخرى، بل الرواية بالمعنى أولى بالجواز منها فى السنة، وكلاهما ممنوع فى القرآن قطعاً فالتخصيص والشروط التى اعتبرت فى جواز رواية السنة بالمعنى على القول به معتبران فى الترجمة من باب أولى.

ونقل عن القفال من أئمة الشافعية :

(أن قراءة القرآن بالفارسية مع كونها أفضل اللغات لا تتصور ، قيل له: فإذا لا يقدر أحد أن يفسر القرآن ، قال : ليس كذلك لأن هناك - أى - فى التفسير يجوز أن يأتى ببعض مراد الله تعالى ، ويعجز عن البعض ، أما إذا أراد أن يقرأه بالفارسية فلا يمكن أن يأتى بجميع مراد الله تعالى ؛ لأن الترجمة إبدال لفظ بلفظ آخر يقوم مقامه ، وذلك غير ممكن بخلاف التفسير فلا يقصد منه ذلك)[1] أهـ .

ومنه يعلم ما أشرنا إليه غير مرة من أن الترجمة الحرفية غير الترجمة التفسيرية ، وقد علمت أن غير الممكن إنما هو الترجمة الحرفية بالمثل ، وأما بدون المثل فممكنة وواقعة من المجترئين عليها ، وإنهم يعتبرونها فى نظرهم هيكلاً قرآنياً من كلام البشر يحل محل هيكل القرآن الإلهى ، بحيث يكون متواصل الحروف والكلمات مرتب السور والآيات ، ذا شجون وفنون وأخبار وأمثال وحلال وحرام وناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه كالقرآن سواء ، ولاشك أن ذلك لا يجوز على القرآن الكريم الذى هو كلام الله القديم ، ومظهر صفته النفسية وحاشاه أن يمثل هذا التمثيل الممقوت .

---

(١) الإتقان (١ / ٢٩٠) .

وعلى هذا تكون القراءة بهذه الترجمة كالقراءة بالحروف المبدلة والكلمات الزائدة والناقصة لا تجوز فى الصلاة ولا خارجها على الصحيح ، وقد نصوا على أن قراءة القرآن بالعربية إذا لم تستوف شروط الأداء تكون ممنوعة كما تقدم عن الإمام الجزرى وغيره فى المقالة الثانية .

ومذهب الشافعية :

عدم جواز قراءة القرآن بالفارسية فى الصلاة مطلقاً سواء كان يحسن العربية أولا يحسنها .

وفى فتاوى شيخ الإسلام ابن حجر من أئمة الشافعية وقد سئل هل تحرم كتابة القرآن بالعجمية كقراءته فأجاب بقوله :

قضية ما فى المجموع عن الأصحاب التحريم [1] ووجهه بما لا يخرج عما قدمناه فراجعه .

وقال الإمام الزركشى من أئمة الشافعية رحمه الله :

(الأقرب المنع من كتابة القرآن بالفارسية ، كما تحرم قراءته بغير لغة العرب ، وفى شرح العباب أن كتابة القرآن العظيم بالعجمى تصرف فى اللفظ المعجز الذى حصل به التحدى بما لم يرد ، بل يوهم عدم الإعجاز بل بالركاكة

---

(١) إعانة الطالبين (١ / ٨٣) .

لأن الألفاظ العجمية فيها تقديم المضاف إليه على المضاف ، وذلك يخل بالنظم ويشوش الفهم ، وقد صرحوا بأن الترتيب مناط الإعجاز ، وهو ظاهر فى حرمة تقديم آية يعنى أو كلمة كما يحرم ذلك قراءة) أ . هـ .

بل نصوا على أن فى ترتيب حروف الكلمات القرآنية ومراعاة التناسب فيما بينها من الصفات من وجوه الإعجاز ما لا يقدر أحد من البشر على الإتيان بمثله، فضلا عما فى ترتيب الكلمات والجمل من اللطائف والأسرار مالا يحوم حول بيانه لسان أو دركه جنان .

ومع اتفاقهم على عدم جواز كتابة القرآن بغير العربية اختلفوا فيما إذا كتب بغيرها ، هل يحرم مسه ؟ وحمله للحائض والجنب ؟ ذهب الجمهو إلى الجواز لأنه ليس بقرآن .

ونقل العلامة الشوبرى عن الشافعية :

أن القرآن إذا كتب بغير العربية مسه وحمله للحائض والجنب إذا لا يخرج بذلك عن كونه قرآناً وإلا لم تحرم كتابته . أهـ .

ولعل المراد به أنه لم يخرج بذلك عن كونه متضمنا معنى القرآن بقدر ما تسعه أوضاع اللغة المكتوب بها ، وإن خرج عن نظمه وأسلوبه وأعطاؤها حكم

القرآن حملاً ومسًّا عندهم وإنما هو احترام لهذا القدر وإلحاق لنقوش الرسم العجمى بالرسم المخطوط العربى مع مراعاة جانب المعنى فى الجملة .

ولم يلاحظ مثل ذلك فى التفسير ، مع أن نظم القرآن موجود فيه ، متخلل بين سطوره ، لم يطرأ عليه تغيير ولا تبديل ، نظراً إلى أن المجموع المركب من القرآن وغيره لا يطلق عليه اسم القرآن ، ولا ترجمته بل يسمى تفسيراً فقط .

والغالب أن تكون ألفاظه أكثر من ألفاظ القرآن ، فروعى جانبه فى الحكم كما روعى فى التسمية والكتابة بغير العربية وإن لم يكن نظم القرآن موجوداً فيها بذاته ، ولا هى دالة عليه ، ولكن لوضع نقشه مكان النقش الدال عليه وإقامته مقامه نزل منزلته .

والحاصل أن الرسوم الكتابية :

لما كانت كلها من وضع البشر لا فرق بين عربى وغيره أعطيت حكماً واحداً حملاً ومسًّا بخلاف الألفاظ فإن نظم القرآن من وضع الله تعالى وما عداه من صنع البشر ، فلذلك لم ينزل غير النظم المعجز منزلته قراءة وتعبدا ، ونزل الرسم غير العربى منزلة العربى حملاً ومسًّا عند هذه الطائفة .

ومذهب الحنابلة أن :

الصلاة تفسد بالقراءة بالفارسية ونحوها عند العجز وعدمه وهو يدل على منع قراءة القرآن وكتابته بغير العربية مطلقاً .

ومذهب المالكية أنه :

لا تجوز قراءة القرآن وكتابته بغير العربية ، ولذلك أوجبوا تعلم الفاتحة على من لا يحسن قراءتها فى الصلاة بالعربية إن أمكن ، وإلا ائتم بمن يحسنها فإن لم يكن فالمختار سقوطها ، وسقوط القيام لها ، وقيل : يجب قيامه بقدر ما تيسر من الذكر .

إذا علمت هذا فالمعوَّلُ عليه عند جميع الأئمة أنه :

لا تجوز كتابة القرآن ولا قراءته بغير العربية لعاجز أو قادر لا فى الصلاة ولا خارجها ، إلا ما تقدم عن السادة الحنفية فى خصوص الصلاة للعاجز عن العربية ، وقد علمت ما فيه وتصحيح الثقات رجوع الإمام عنه .

ومن ذلك تعلم ما فى قول صاحب الكافى من علماء الحنفية :

(إن اعتاد القراءة بالفارسية أو أراد أن يكتب مصحفاً بها يمنع ، وإن فعل فى آية أو آيتين لا ، فإن كتب القرآن وتفسير كل حرف وترجمته جاز) أهـ

فإنه إن أراد بالترجمة الحرفية للقرآن فقد علمت أنها لا تجوز مطلقا ذكر معها تفسير أو لم يذكر ؛ لأنها تحريف وتغيير للنظم ، لا يدفعه اقتران بالتفسير به[1] .

وإن أراد الترجمة التفسيرية فهذه جائزة مطلقاً بالشرط الذى بيناه وليست ترجمة القرآن على أن نصوص الفقهاء من الحنفية وغيرهم تخالفه .

ولذلك أفتى صاحب الفضيلة الأستاذ شيخ الجامع الأزهر بمنع ترجمة القرآن ووجوب مصادرة المصحف المشتمل على الترجمة الحرفية وإن كان معها ترجمة تفسيرية.

وما يتوهم من جواز الترجمة الحرفية أخذا من ظاهر قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (التوبة: ٦) .

فليس بصحيح لأن المعني كما ذكر الألوسي وغيره :

أن المشرك إذا طلب الأمان بعد انقضاء الأجل المضروب يؤمن حتى يتدبر الأمر ويتعظ بما يدعي إليه من هدي الإسلام ، فإن كان من العرب تتلى عليه آيات الله وكلامه ؛ لأنه من أعرف الناس بدلالتها ، وأعلمهم ببراعة أسلوبها وبلاغة

---

(١) فتح القدير (٢ / ٤٧) ، رد المختار (٤ / ١٦) .

نظمها ، وكثير منهم كانوا إذا سعوا القرآن خروا له سجداً وهم صاغرون وآمنوا به وهم لإعجازه مذعنون .

وإن كان من غير العرب الذين لا يعرفون اللغة العربية يبين له ما يرشده للحق ويهديه إلى الصراط المستقيم لا بخصوص كلام الله تعالى .

واقتصر فى الآية على ذكر السماع لأنها مسوقة لبيان حال مشركى العرب وهم من أهل اللسن والبلاغة ، وإن كان لفظها لهم وغيرهم من المشركين والمراد حتى ينصاعوا لطاعة الله ورسوله .

وقد علمت مما سلف حكم ترجمة كتبه ﷺ وإن بعثها إلى الكفار مشتملة على بعض الآيات القرآنية لا ينهض دليلاً على جواز الترجمة الحرفية للقرآن الكريم ، لجواز أن يكون ترجمة ما وقع فيها من نحو الآية والآيتين ترجمة تفسيرية لا حرفية ، ولو سلم أنها حرفية فهى لم تذكر فى الكتب على أنها من نظم القرآن ولا قصد بها تلاوته بل سيقت للدعوة إلى حكمها ضمن كتبه ﷺ .

ولو فرض أنها سيقت على أنها قرآن فترجمة نحو الآية والآيتين ضمن غيره لا تدل على جواز ترجمة القرآن بتمامه ، ولا ترجمة جزء منه مستقلاً كما قالوه فى قراءة القرآن ومسه للجنب فإنهم أجازوهم فى القليل النابع ومنعوهما فى الكثير المستقل أو المتبوع كما ذكره القسطلانى وغيره .

فبما رواه الإمام البخارى [١] عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال :

أخبرنى أبو سفيان أن هرقل دعا بكتاب النبى ﷺ فقرأه فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم :

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

(آل عمران : ٦٤) .

حيث قالوا جوابا عمن تمسك به فى جواز قراءة القرآن للجنب أن الكتاب قد اشتمل على غير الآيتين فهو كما لو ذكر بعض القرآن فى التفسير فإنه لا يمنع من قراءته ومسه عند الجمهور لأنه لا يقصد به التلاوة . أهـ .

فقوله : لا يقصد به التلاوة : معناه أن ما يذكر من القرآن على هذا الوجه لا يقصد نظمه ، ولا التعبد بتلاوته ، وإنما يقصد حكمه ضمن أحكام غيره تقوية أو إفادة لغرض المسوق له ، فَالمرعِيُّ فيه جانب المعنى دون اللفظ والشيء مع غيره غيره فى نفسه .

---

(١) رواه البخارى (٧) ، ومسلم (١٧٧٣) .

وقد اختلفوا فى جواز تعليم القرآن باللغة العربية للكفار :

منعه الإمام مالك وأصحابه رضي الله عنهم كما ذكره العلامة النفراوى فى شرح الرسالة وغيره ، واستثنوا من ذلك نحو الآية والآتين أخذا من كتابه ﷺ نحو ذلك إلى الكفار ؛ لأن فى بعث الكتب إليهم مشتملة على هذا القدر تسليطا على تعلمهم بعض القرآن بقراءته حتى يترجم فإن الترجمان الذى حذق اللغتين لابد أن يقرأ القرآن أولا ويعرف معناه ثم يترجمه باللغة الأخرى لمن أرسل إليه.

ولما كان الأصل عن المالكية منع تعليم الكافر القرآن لورود النهى عن ذلك قصروا جواز التعليم على قدر ما ورد فى كتبه ﷺ وعلى الوجه الذى ورد به ومنعوا ما عداه جمعاً بين الأدلة كما أن ما يؤخذ من هذه الكتب الشريفة من جواز الترجمة على تسليم أنها حرفية حيث سلطوا عليها كما سلطوا على التعليم مقصورة على ذلك القدر عندهم فلا يجوز ما زاد عنه .

وينبغى أن يكون الحكم كذلك عن الإمام أبى حنيفة رضي الله عنه على رواية رجوعه إلى القول بمنع قراءة القرآن بغير العربية مطلقاً عملا بما تدل عليه أحاديث الكتب المذكورة .

ولما كان هذا القول هو رأيه الذى استقر عليه وكانت هـذه الأحاديث دالـة على التسليط على ترجمة القدر القليل من القـرآن التـابع لا يـصح أن ينـسب إليـه القول بجواز ترجمة القرآن مطلقا أخذا من هذه الأحاديث .

نعم يصح أن ينسب إليه القول بجواز تعليم الكفار القرآن بالعربيـة مطلقـاً استنباطا مـن تلـك الأحاديـث لأنـه قائـل بـه ، كـما ذكـره القـسطلانى فى بـاب (هل يرشد المسلم أهل الكتاب أو يعلمهم الكتاب) أى القرآن حيث قال :

وقد منع مالك تعليم المسلمُ الكافرَ القـرآنَ وأجـازه أبوحنيفـة واحـتج لـه الطحاوى بهذا الحديث مع قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (التوبـة : ٦) ، وهـذا أحد قولى الشافعى .

وقال فى فتح البارى [١] :

والذى يظهر أن الـراجح التفـصيل بـين مـن يرجـى منـه الرغبـة فى الـدين والدخول فيه مع الأمن من أن يتسلط بذلك إلى الطعن فيه وبين من يتحقـق أن لا ينجح فيه أو يظن أنه يتوصل بذلك إلى الطعن فى الدين . أهـ .

---

(١) فتح البارى (٦ / ١٠٧) .

ولا شك أن مسألة تعليم القرآن للكفار بالعربية غير مسألة ترجمته وقراءته وكتابته بغير العربية ، وإن كتابته ﷺ إلى هرقل نحو الآية والآيتين ضمن كتابه وإن صح مأخذا عند الإمام لجواز التعليم بالعربية مطلقاً لثبوت القول به عنه ، لا يصح مأخذا له فى جواز الترجمة مطلقاً لما سبق من أنه لا يقول به ، وللفرق بين التعليم والترجمة فالتسوية بينهما من الخلط [1] البين والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

****

(١) والذى تستريح له النفس جواز ترجمة معانيه فقط دون تجاوز ذلك إلى حروفه وكلماته لاستحالة ذلك وحرمته .

خاتمة

في تبليغ القرآن وأحكام الدين

خاتمة فى تبليغ القرآن وأحكام الدين :

إن تبليغ نظم القرآن الكريم بأسلوبه العربى إنما هو بالنسبة إلى من يمكنه أن يقرأ باللغة العربية ، فيطلب تبليغه للهداية والتحمل والتعبد بتلاوته وحفظه والاحتجاج به وتأدية القدر المطلوب منه فى الصلاة ، وأما من لايمكنه القراءة بها من أهل اللغات الأخرى فإنما يبلغ أحكام الدين بترجمتها من لغته ، ويجب عليه تعلم اللغة العربية لتأدية ما يطلب منه ويندب له فيما يطلب منه ندبا لأن الوسيلة تعطى حكم مقصدها ، فتبليغ أحكام الدين عام للعربى وغيره ، فمن أحسن اللغة العربية بلَّغ بها ومن لم يحسنها بلَّغ بالترجمة والتفسير .

وأما نظم القرآن الكريم وأسلوبه العربى فلم يبلغ إلا لمن أحسن لغته، لما علمت أن ترجمته الحرفية بالمثل غير مقدورة ، وبدون المثل لا تجوز، ولا تجدى .

وأما ترجمته التفسيرية فكسائر التفاسير العربية جائزة بشرط أن يكون تفسيرها من الأحاديث النبوية الصحيحة ، وعلوم اللغة العربية ، والأصول المقررة فى كتب الشريعة الإسلامية ، وبذلك تعلم أن تعميم الرسالة للبشر لا يتوقف على ترجمة القرآن وإنما يتوقف على تبليغ أحكامه ،

وسبيله أن تترجم أحكام الإسلام التى تضمنها القرآن والسنة من عقائد وعبادات ومعاملات وغيرها ترجمة صحيحة وافية مشرو عةمشفوعة ببيان أسرار التشريع ومقاصده ثم يبلغ ذلك لجميع الأمم لافرق بين عربى وغيره.

وطرق التبليغ مختلفة فتارة يكون بالمشافهة بواسطة وغير واسطة، وتارة بالمكاتبة وإرسال الرسائل كما وقع له ﷺ وهو مبعوث إلى الثقلين، فقد بلغ ما أوحى إليه من الأحكام بهذه الطريقة فبلَّغ الحاضر بنفسه، وأمر الشاهد أن يبلِّغ الغائب، وأرسل للغائب رسولا تارة وبعث إليه بكتاب تارة أخرى، واقتفى أثره فى ذلك الخلفاء الراشدون والعلماء العاملون، وهذاالنوع من الترجمة والتبليغ على هذا الوجه أصبح الآن من فروض الكفاية على جماعة المسلمين، فإذا قاموا به فقد أدوا حق الله وحق الإسلام وأجابوا داعى الله كما قال تعالى :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

(آل عمران : ١٠٤) .

وبذلك تنتهى حاجة من لايعرف لغة القرآن وأحكام الإسلام ، وبه تتحق الدعوة إليه والإنذار به ، فإذا عرف محاسن الإسلام وشرح الله صدره إليه وسمت نفسه إلى تعلم لغة القرآن وتعليمها ، فعند ذلك يبلغ القرآن بلسانه العربى ويخاطب بحكم التحمل له والتعبد بتلاوته والاحتجاج بآياته :

﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ (البقرة: ٢١٣) .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تم تحريراً يوم الأحد ١٥ ذى القعده سنة ١٣٤٣ على يد أفقر العباد وأحوجهم إلى مولاه الرءوف :

محمد بن حسنين بن محمد مخلوف العدوى المالكى

غفر الله له ولوالديه والمسلمين .

والحمد لله رب العالمين .

فهرس

الموضـــــوع	الصفحة
	٢٥١